ثمن النسخة الواحدة فرنكان واجرة البوسطة غرش صاغ

الدين والعلم والمال

المدن الثلاث

ذكر مدينة الدين ومدينة العلم ومدينة المال وما جرى بين سكانها من النزاع ودعاوى كل فريق منهم على خصمه وكيف انتهت مشكلتهم التي هي اليوم اكبر المشاكل عند كل الامم والشغل الشاغل لفلاسفة العمران ورؤساء الحكومات

تأليف

فرح انطون

منشىء مجلة (الجامعة)

« فليحذر العالم من يوم يصير فيه
« الضعفاء اقوياء والاقوياء ضعفاء

الاسكندرية في ١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣

فهرست الكتاب

المقدمة

من الروايات ما يُنشأ للتفكهة والتسلية ومنها ما يُنشأ للافادة ونشر المبادىء والافكار . والذين انشئوا رواياتهم للافادة في الغرب معدودون في مقدمة مشاهير المؤلفين كتولستوي وزولا وكيبلنغ وغيرهم . فان كل واحد من هؤلاء الكتاب لا يرى في وضع الروايات حطة وضعةً بل يعتبر الرواية منبرًا ينشر منه آراءه وافكاره بطريقة تبلغها الى اذهان القراء بسهولة . ونحن في الشرق محرومون هذه الطريقة لعدم رواجها لاسباب لا محل لذكرها هنا . ولذلك كانت الروايات التي تُنشر عندنا لا غرض منها غير التفكهة الاَّ بعضها

ولما وصلنا في ابراز مواد « الجامعة » الى المواضيع المهمة التي تكمّل مباحثها السابقة خطر لنا ان نهجر اسلوب المقالات المنقطعة والفصول المتفرقة الى اسلوب الرواية لانه اجمع واوعى فضلاً عن كونه اشد تاثيرًا واحسن وقعًا . فعزمنا بحوله تعالى على ابراز عدة روايات كل واحدة منها تبتدىء وتنتهي في جزء واحد تسهيلاً لمطالعتها واستيعابها لان الانتظار يقطع الرغبة فيها . وسيكون اهتمامنا فيها بالمبادىء والافكار مقدمًا على الاهتمام بالحوادث والاخبار . ولكن هذا لا يمنع من التزام ما تقتضيه الروايات من الوصف وتصوير العواطف والحوادث تصويرًا طبيعيًا لان فن الروايات فنٌّ بسيكولوجي جماله وتأثيره متوقفان على حسن سبكه ولطف اسلوبه ودرس باطن الانسان واخلاقه وبثّه درسًا دقيقًا

وهذا الكتاب « الدين والعلم والمال » هو الرواية الاولى من هذه الروايات . وموضوعه معروف من عنوانه . وقد سميناه هنا (رواية) على سبيل التساهل لانه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في اوروبا « بالمسالة الاجتماعية » وهي عندهم في المنزلة الاولى من الاهمية لان مدنيتهم متوقفة عليها

وربما قيل ان هذا الموضوع غير لاصق بنا كل اللصوق لان « المسألة الاجتماعية » لا تزال صغيرة عندنا . فالجواب ان هذه المسائل هي مدخل للمباحث التالية في الكتب التالية . ذلك لان المباحث الاجتماعية والفلسفية مرتبطة في الحقيقة بعضها ببعض فلا يمكن تحقيق احدها دون الغوص الى اعماقها لمعرفة اساسها . وقد اظهرنا الاساس في هذا الكتاب . فعسى ان ينال من رضى ساداتنا القراء والكتاب ما ينشطنا في خدمتنا

الاسكندرية ١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣ « المؤلف »

الفصل الأوَّل

﴿ حلم ﴾

والمدن الثلاث التي كان يحج اليها الناس

فقال له الشيخ وهل تقيم عندنا طويلاً يابنيَّ

فاجاب الشاب نعم ياعم فانني جئت من اقاصي البلاد لاشاهد المدن الثلاث التي سار بذكرها الركبان · وربما استغرقت اقامتي عندكم شهرًا على الاقل · لانني سازورها واحدة واحدة وابحث في شؤونها بحث مؤرخ دارس لا بحث متفرج

فتنفَّس الشيخ الصعداء وقال · اف اف كم يزور الناس هذه المدن الثلاث · فهم يظنونها عجيبة من عجائب الدنيا مع اننا نحن لا نراها الاَّ مدناً كباقي المدن · انظر اليها اي فرق بينها وبين باقي المدن سوى قيامها في هذا السهل الفسيح بشكل مثلث

فنظر الحاضرون الى حيث اشار الشيخ فشاهدوا امامهم سهلاً فسيحًا لا يعرف الطرف آخره · وكان في هذا السهل ثلاثة بلدان جميلة البنيان محاطة من كل جهة بالحدائق والبساتين والحقول الصفراء من منظر الزرع تتخللها المواشي المختلفة وهي ترعى بحراسة فتيان وفتيات كانوا جالسين افرادًا وازواجًا وجماعات تحت الاشجار المثمرة او في ظل بعض السياجات

فقال الشاب بعد ان سرَّح طرفه في هذا المنظر البرّي · حقاً انه منظر بديع

وكان المكان الذي يقيم فيه الشاب والشيخ مع بعض من الزائرين منزلاً صغيرًا في قرية صغيرة قريبة من « المدن الثلاث » وكانت هذه القرية في اول السهل على مقربة من

النهر الجميل الذي كان ينساب في السهل انسياب الافعى ليسقي زروعه واشجاره . وقد سمى الناس هذه القرية « الدخول » او قرية الدخول لانها المدخل الى المدن الثلاث ــ الى تلك البقعة التي كان يحسبها الناس جنة الله في ارضه

فبعد ان امعن الشاب النظر قليلاً في المدن الثلاث التفت الى الشيخ وقال : هل تعرف ياعم تاريخ تأسيس هذه المدن بالتدقيق

فاجاب الشيخ : كل الناس هنا يعرفون هذا التاريخ يابنيَّ لانهم لا ينسون ذكر ذلك الرجل الكريم والانسان الذي لا مثيل له بين البشر مؤسس هذه المدن ومنشئها . انظر الى تلك الحديقة البعيدة الكائنة في وسط المدن الثلاث . هذه حديقته وقد اقام لها فيه اهل هذه المدن تمثالاً عظيماً يحتفلون بتذكاره مرة في كل عام

فقال الشاب انك تتكلم عن المرحوم الشيخ سليمان فاحكِ لي قصته وقصة تأسيس هذه المدن من اولها

فسعل الشيخ قليلاً واصلح جلوسه فوق الوسادة ثم اخذ يقول

منذ نحو مائة سنة يا بنيَّ كان الشيخ سليمان فتى فقيرًا يتيماً يتجول في المدن يطلب عملاً . فذاق في صباه كل انواع العذاب في هذه الحياة . ومما كان يزيد عذابه نفسه الحساسة الكبيرة طبقاً لما قيل

وانعس الناس حالاً من تكون له   نفس الملوك وحالات المساكينِ

ولكن يظهر ان العناية الالهية يا بنيَّ لا تخصُّ بعض هذه النفوس بالشقاء والنقم والعذاب الا لمقاصد سامية . فانه اذا كانت المصائب تسحق النفوس الصغيرة وتفلّ عزائمها فانها تشدّد عزائم النفوس الكبيرة لانها تعلّمها بالاختبار ما لا تتعلمه بسواه . فهي كالعود الطيّب الذي لا تنتشر رائحته الامتى مسته النار او كالزيت الذي لا يضيء الا بالاحتراق . وهذا ما جرى للشيخ سليمان . فانه بعد ان ذاق من مصائب الحياة ما ذاق في ابان الفقر والضيق لم تسمح له طبيعته الكريمة ان ينسى ذلك في ايام الثروة والرخاء

انَّ الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

ولذلك كان همه اول ما اثرى وجمع مالاً طائلاً ان يقوم بمشروع كانت تحدثه نفسه به منذ صباه فانه في ذات يوم اعلن في البلاد كلها اعلاناً غريباً أُلصقه في الشوارع وفرقه في الناس وبعثره في الطرق والاسواق . ومحصل هذا الاعلان ان كل فتى وكل فتاة يجولان في الشوارع بلا شغل ولا رزق اذا قصداه فانه يعطيهما شغلاً ورزقاً واسعاً . فلم يمضِ على

هذا الاعلان اسبوع واحد حتى بلغ عدد الفتيان الذين قصدوه ٣٢٤٥ فتى وعدد الفتيات ٣١٢٠ . فاشترى الشيخ سليمان هذا السهل الواسع الذي امامنا ومساحته ٥٠٠٠ فدان واسكن اولئك الفتيان والفتيات فيه واحضر لهم زراعاً وصناعاً يدربونهم على الزراعة والصناعة واقام منهم حكومة لهم وسن لهذه الحكومة قوانين وجعل فيها قضاة وجنداً ورئيساً اعلى . نعم ان ذلك كان مضحكاً في بدء الامر ولكنه لم يلبث ان صار جدياً مهماً . فان اولئك الفتيان والفتيات الفقراء الذين اجتمعوا من كل الجهات انتقلوا بهذه المعاملة من حالة الى حالة . فبعد ان كانوا مثلاً يجمعون اعقاب السكائر من الشوارع والاسواق ليبيعوها الى تجار الدخان او يطوفون المدينة بالنهار باثواب بالية قذرة يستعطون قوتهم او يطلبونه من فضلات المنازل في المزابل وفي الليل ينامون اكداساً اكداساً في زوايا الطرق على البلاط البارد حتى في اشد ليالي الشتاء برداً كانهم حيوانات لا بشر — صاروا يشتغلون بشرف واجتهاد في اماكن معدة لذلك ويلبسون من اجرة شغلهم ثياباً نظيفة ويتغذون باطعمة مغذية . ولم تعد ترى في عيونهم ذلك القلق الشديد الذي كان فيها حين كانوا في تيار تلك المعيشة الهائلة التي لا يكون فيها الانسان على ثقة حتى من بلغة يسد بها رمقه في المساء او في الصباح لتدوم له حياته . بل حل محل ذلك القلق طمانينة تامة لثقة ذلك العامل الصغير بان حياته صارت مضمونة . ولذلك صار يبتسم للحياة ابتسام الراحة والارتياح بعد ان لم يكن يبتسم من قبل الا ابتسام عدم المبالاة بشيء حتى بالحياة . ومما زاده راحة وسعادة حكومته نفسه بنفسه تحت مراقبة الشيخ سليمان وصيه . فانه لم يمر على هؤلاء الاولاد نحو سنة من الزمان حتى صاروا يشعرون بالتبعة التي عليهم ولذلك صاروا يراعون الحدود في سلوكهم . ومن هذا اليوم يبداء تاريخ نهوضهم من عثرتهم

فقطع الشاب كلام الشيخ وقال : اذاً اجداد سكان هذه المدن الثلاث كانوا من فضلات الازقة والشوارع

فقال نعم يا بني ولكن تذكر ان الورد لا ينبت الا من الشوك والنرجس لا يخرج الا من بصل . على اننا نحن سكان هذه القرية كنا نود لو اقتصر سكان هذه المدن الثلاث على المعيشة التي عاشها اجدادهم اولئك الفتيان العاملون لان في ذلك راحتنا من الاضطرابات والفتن التي قام قائمها بين السكان في الازمنة الاخيرة . فاولئك الفتيان كان لا هم لهم غير زراعة ارضهم واتقان مصنوعاتهم والمعيشة بسلام بعضهم مع بعض . اما اصحابنا هؤلاء فان دابهم النزاع والخصام . فنعم الآباء ولكن بئس ما ولدوا

فقال الشاب وما سبب نزاعهم وخصامهم

فقال الشيخ : انت ترى يا بنيّ ان هذه المدن ثلاث . فاحداها تُدعى مدينة المال لان اهلها كلهم يشتغلون بجمع المال . والثانية تدعى « مدينة العلم » لان اهلها كلهم يشتغلون بالعلم . والثالثة تدعى « مدينة الدين » لان اهلها كلهم منقطعون الى الدين . وقد حدث هذا الانقسام على ما ترى منذ زمن بعيد . فان اولئك الفتيان والفتيات الذين اسسوا هذه الجمهورية الصغيرة بعد اشتغالهم بزراعة الارض واتقان المصنوعات اصابوا نصيباً من الثروة والسعة . فلما تزاوجوا وتكاثروا جاء ابناؤهم ارقى منهم واكثر ميلاً الى الشؤون النفيسة . فعكف بعضهم على التجارة وبعضهم على العلم وبعضهم على الادب وبعضهم على الدين — كل بحسب استعداد نفسه وقابليتها . فلم يمر زمن طويل حتى قام النزاع بينهم على ساق وقدم . فارتأى بعض منهم زيادة في توسيع المعيشة على السكان ان ينشئوا بلدتين اخريين قريبتين من البلدة الاصلية . ثم رغبةً في حصر النزاع في مكان واحد او منعاً للنزاع قرروا ان تسكن كل طبقة في بلدة . فطبقة المال تسكن في البلدة الشرقية وطبقة العلم في البلدة الغربية وطبقة الدين في البلدة الجنوبية . ولكنّ هذا التدبير قد ذهب سدى بلا جدوى لانّ النزاع ما زال قائماً بينهم

الفصل الثاني

الحب

في قلب لم يعرف الحب

وكان الشاب الذي التى على عمه الشيخ تلك الاسئلة في نحو الثلاثين من العمر وقد جاء سائحاً لمشاهدة هذه المدن الثلاث التى سمع بها من بلده . وكان رجلاً قد درس علوم المتقدمين والمتاخرين ووقف على المبادىء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة . فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها وبناءها قائم على القوة والعنف . ولا المدنيات الحديثة كانت ترضيه لانها جعلت الحياة عراكاً هائلاً وجهاداً عظيماً بين الناس . وكان وهو في المدرسة قد لمح في ذهنه عصراً يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي ويسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضي فبقي منه في فكره

اثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين افرادها . فلما سمع بهذه المدن الثلاث ومعيشة سكانها في وسط الطبيعة معيشة خالية من ادران الاجتماع ورذائله خيل له انها بداية العصر الذهبي الموعود به الانسان في الارض (١) فقال في نفسه : فلنذهبن لمشاهدة تلك البقعة التي ابتدأ بها العصر الذهبي فانه قد آن للانسانية في الارض ان تصل اليه وتجد شيئاً من الراحة بعد جهاد القرون الماضية

لكن لما سمع الشاب ما حدثه به الشيخ عن نزاع تلك المدن الثلاث سقط امله وخاب ظنه . على انه كان من الذين يستفيدون من كل شيء . فقال في نفسه : انني مولع بدرس كل ما له علاقة بتنازع المال والعلم والدين . فربما قدرت في هذه المرة على اكتشاف اسرار جديدة بهذا الشان . بل ربما كان تنازع هذه المدن الثلاث المنصوبة احداها تجاه الاخرى كمنجانيق للحرب مؤدياً الى حل لهذه المشكلة القديمة

وبينما كان الشاب يفكر في هذه الامور واذا سأله الشيخ : متى تدخل الى هذه المدن ياولدي حليم . فاجاب الشاب : سادخلها غداً . فقال الشيخ وهل تعرف فيها احداً يا بني . فتنهد حليم واجاب مبتسماً كلا . فقال الشيخ : لقد رابني في جوابك شيئان . تنهدك وابتسامك فاصدقني . فزاد حليم في الابتسام وقال : وما يمنع من ان اصدقك لو كنت اعرف فيها احداً

الا ان حليماً لبث بعد هذا الجواب مبهوتاً . وقد تنهد هذه المرة تنهداً لم يدع عمه الشيخ يشعر به وشخصت عيناه حينئذ الى المدينة الشرقية — مدينة المال . ثم انتقلت من مدينة المال الى حديقة واقعة تجاه القرية على شاطئ النهر عند مدخل السهل . ولما وقع نظره عليها اغمض عينيه كما يغمضها من لا يريد ان ينظر ما امامه او من يريد ان ينظر في داخله صورة نفيسة مخبوءة فيها . وكان غرض حليم الامرين معاً

وكان مع حليم رفيق اكبر منه سناً وافخم منه جسماً . فلما شاهد حركاته هذه ابتسم له . فتوردت وجنتا حليم لهذا الابتسام لانه فهم معناه . فخشي رفيقه ان يكون قد اساء اليه بهذه الاشارة فمال نحو اذنه وهمس فيها قائلاً على سبيل المداعبة : اما تظن ان العصر الذهبي قد ابتدأ

فازدادت حمرة جميل واجاب صديقه ضاحكاً : مهما كان في عبارتك من التهكم فانها مقبولة لانها اختراع جميل

فقال له صديقه على سبيل المداعبة ايضاً : انت اجمل يا صاح . ولكن لا تله نفسك

«١» ملكوت الله

الآن بهذا الكلام عن الامور المهمة — ثم اشار نحو الطريق

فلفت جميل نظره الى حيث اشار صديقه فتمشى قلبه في صدره لمنظر رآه بعيداً . ذلك انه شاهد خمسة جياد عليهن خمس فتيات يركضن عليهن خبباً . فطار نظره في الحال الى التي تلبس ثوباً ابيض بينهن . فرآها تسير في الوسط وهي اخفهن حركة وجوادها اسرع خطى . فلبث شاخصاً نحوها . اما صديقه فتركه في مناجاته ولم يزعجه هذه المرة بالمزاح الثقيل لانه كان يعلم ان النفوس الحساسة المخلصة لا تطيق المزاح احياناً في بعض الاشياء . ذلك ان المزاح سهم يخدش دائماً وان كان خدشه خفيفاً . والرجل الكريم يغار على ما هو نفيس عنده ومحبوب ان يُخدش حتى بوردة . ومن الغريب ان سؤالاً واحداً كان في تلك البرهة يشغل فكر حليم وفكر صديقه معاً . وهذا السؤال هو . هل تلتفت الفتاة الى النافذة ام لا . الا ان حليماً كان يشك في التفاتها . واما صديقه فانه كان على يقين منه . ذلك لانه راى منها في البستان الذي شاهداها فيه مع رفيقاتها قبل وصولها الى هذه القرية ما لم يرَه حليم منها . وكانت عالمة انها سينزلان في ذلك المنزل . ولكن مع ذلك صدق ظن حليم وخاب ظنه هو . فمرّت الفتاة مع رفيقاتها في الطريق البعيدة دون ان تلتفت الى النافذة

وكان حليم شاباً كريماً . وكان قد صرف عمره في مطالعة الكتب وانتقاد احوال الاجتماع . ومن سوء حظه لم تعرض في طريقه فتاة تريه خطأ ذلك الانتقاد . ولذلك كان حليم الى تلك الساعة بلا حب . ولكن لا يجب ان يُستدل بهذا القول على ان قلبه كان جامداً كالحجارة ولذلك لم يتحرك قبل الان . كلا . ان قلب حليم كان بسلاسة الماء ولطف النسيم ولين الشمع . ولكنه لم يكن يجد في طريقه من تقدر ان تؤثر عليه وتحرك هذا القلب . فهل الذنب ذنبه في هذا الامر ام ذنب الناس . وكيف تريدون من النار ان تشتعل اذا لم يكن هنالك حرارة الاشتعال او من الحديد ان يُجذب اذا لم يكن هنالك مغناطيس للجذب . وقد كان يُقال له احياناً : كيف يمكن ان تحب وتتزوج اذا بقيت بعيداً عن الناس كما انت . هل الحب هواء يطير ويدخل في الاجسام ليأتيك وانت بعيد عنه بين المحابر والالوان والاقلام . كلا . اذاً فعاشر وساير ان رمت ان تحب . اما هو فقد كان يجيبهم باسماً : انني من الذين يقرأون الرسالة من العنوان ويعرفون الشجرة من الثمرة . فانا في وادٍ ونساؤكم وبناتكم في وادٍ . على انني لست الوم النساء اذا لم يفهمن اخلاقي وعواطفي ما دام الرجال انفسهم لا يفهمونها . فالانفراد عن هذه الهيئة الباطلة الكاذبة التي نعيش

فيها غير مبالين بها ولا بمسراتها ولا بآمالها — لانها تختلف عن مسراتنا وآمالنا — خير من الانضمام اليها وسريان عدواها الينا

ولذلك كان حليم يقابل السيدات بلا مبالاة ولا مجاملة كما يقابل الرجال . وبينما كنت ترى جميع الشبان في الحفلة يطوقون بكراسيهم اجمل السيدات والبنات و يبذلون جهدهم في خدمتهن كأنهم كلاب صيد لاشان لهم في الجلسة الا احضار ما يطلبنه اوندامى لا غرض لهم الا بسطهن وتسليتهن — كنت ترى حليماً جالساً في زاوية يضحك من اولئك وهؤلاء ويتسلى بمراقبة الحركات الباردة والكلمات الشاردة والنظرات الجاهدة — وعند كل واحدة منها كان يضحك في نفسه و يقول : ما اكذبك ايها الانسان

ولكن لما قدم حليم في هذه المرّة الى هذه القرية قاصداً السياحة في المدن الثلاث ووجد في طريقه قبل الوصول الي القرية تلك الفتاة بين رفيقاتها — تغير وجه المسالة في نظره . والغريب ان هذا الوجه قد تغيرّ بلا سبب مغير اي من غير ان يحادث حليم هذه الفتاة ويختبر اخلاقها ليعرف ما وراء جمالها وهل هي ارقى من بنات بلده حقيقة لتستحق ميله وحبه . فهل ترى كان ذلك التغيير من تاثير السفر على الاخلاق لانه يهيئها لقبول كل تاثير يعرض لها لانها تكون في حاجة اليه في غربتها ؟ ام ذلك لميل النفوس دائماً الى البعيد ونبذها القريب المالوف طبقاً لقول العامة « الدير القريب لا يشفي » ؟ ام ذلك لان عواطفه المضغوطة في قلبه قد وجدت هذه المرة منفذاً ففاضت رغماً عنها اذ طال بها عهد انتظار الحب وهو لا يأتي ؟ ام ذلك لان علم حليم بان تلك الفتاة من احدى المدن الثلاث قد جعل لها في نفسه مكاناً سنياً في الحال فنظر اليها بعين الكمال بعدان كان ينظر الى بنات جنسها بعين النقص ؟ ام ذلك لان كهربائية حليم وكهربائية الفتاة قد اتحدتا لاول نظرة لانها خُلقتا لتتحدا معاً طبقاً لاعتقاد بعض المتقدمين بان الله يصنع النفوس انصافاً انصافاً وان الحب هو عبارة عن وجود النفس نصفها الثاني المكمّل لها ؟

الفصل الثالث

﴿ المدن الثلاث ﴾

مدينة المال · مدينة العلم · مدينة الدين

وفي صباح اليوم الثاني استعدّ حليم ورفيقه صادق للدخول الى المدن الثلاث · فنهض حليم الى ثيابه يصلحها بتأنق خلافاً للعادة · فنظر اليه صديقه وابتسم · فعبس حليم قليلاً وقال له · يظهر ان صحبتك ستكون ثقيلة قليلاً بعد الآن · فاجابه رفيقه : قل ما تشاء في ذمي ولومي ودعني ارى فيك ما لم اره قبل الآن وهو اهتمامك بظاهرك · فقال حليم وقد رام تغيير الحديث : بأي مدينة نبتدئ · فابتسم رفيقه واجاب : هل من حاجة للسؤال فاننا سنبدأ بمدينة المال · ففهم حليم حينئذ انه انتقل من الرمضاء الى النار فاجابه ضاحكاً ومتورداً خجلاً : حقاً انك لا تستطيع ترك المزاح

وما طلعت الشمس في ذلك النهار تبعث الى الخليقة حرارتها المحيية ونورها المنعش حتى خرج حليم وصادق من القرية وقصدا المدن الثلاث · فوجدا في الطريق الزراع خارجين الى حقولهم وبساتينهم والرعاة يسوقون مواشيهم الى مراعيها الخصيبة وفي مقدمتها ومؤخرتها الكلاب لحراستها وهم سائرون وراءها في ايديهم قصب رخيم الصوت ينفخون به نفخاً يذكّر السامع نفخ زمار الرعاة في جبال لبنان واوديته اوغناء الرعاة في عصر الاله ابولون لما نزل الى الارض وجعل نفسه راعياً وعلّم الرعاة اناشيد الآلهة · ثم سارا بضع خطى فوجدا اعمى يستعطي جالساً تحت سياج بستان على الطريق ووراء السياج في داخل البستان رجل في يده كيس كبير يملأه من الثمار والقلق بادٍ على وجهه مما يدل على انه يسرق تلك الاثمار · ثم بعد برهة شاهدا صياداً يطارد الطيور **ليصطادها** رغبة في لحمها ويترك بعد ذلك صغارها تنتظرها في اعشاشها حتى تموت برداً **وجوعاً** · وبعيداً في رأس شجرة منفردة صبي لا يتجاوز عمره عشر سنوات ينصب قضبان دبق **للطيور** ليمسكها بها · وقريباً من هذه الشجرة رجلان كل منهما آخذ بخناق رفيقه وهما يشاتمان ويتضاربان بحدة وجنون كانهما كلبان يقتتلان على عظمة · وفي الجانب الآخر وراء جذع شجرة فتى يرافق فتاة لا هي اخته ولا هي نسيبته ··

فلما شاهد حليم هذه المشاهد قال في نفسه باسماً : نحن في وادٍ والعصر الذهبي في وادٍ . فان هذه المصائب والقبائح تدل على اننا قرب مدن كالمدن المألوفة الاعتيادية

وبعد المسير نحو ساعة وصل الصديقان الى مدينة المال . فدخلا اليها بلهفة وشوق ليروا داخلها

وكانت هذه المدينة اكبر المدن الثلاث واوسعها . وكانت ممتازة عن المدينتين الاخريين بقصورها الشاهقة ودورها الباذخة وجنائنها المحيطة بمنازلها . فلما اخذ حليم ورفيقه يجولان في اسواقها وشوارعها لم يكونا يسمعان الا نداء الباعة واصوات التجار ورنين المال يُدفع او يُقبض ودوي اصوات البضائع تُحمل او تُنزل . ونظر حليم الى اهلها نظر منتقد فرآهم باجسام سمينة وعيون هائمة لا تستقر في مكان لا لفتها النشاط والحدّة والتفتيش وثياب نظيفة مرتبة تدلّ على سعتهم . نخيل له انه بين قوم سعداء بعلمهم اقوياء بنشاطهم وجدّهم . لكنه كان من الذين لا يكتفون بظواهر الاشياء للحكم عليها حكماً سديداً . فقال في نفسه سنرى النتيجة بعد زيارة المدينتين الاخريين

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً كان يفتش بعينيه كثيراً عن فتاته لعله يلمحها في نافذة مفتوحة او شرفة او حديقة . ولكن تعبه ذهب بلا جدوى . فانه كان يرى في النوافذ والشرفات والحدائق والطرق كثيرات من الحسان وكلهن كأنهن اقمار فوق اغصان بان . الاَّ انه لم يقف على اثر لحسنائه . فكان كلما رأى حسناء وظنها اياها ثم ظهرت له خيبة ظنه يردد قول الشاعر

أليس عجيباً ان نكون ببلدةٍ كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ

وبعد ان جال حليم وصديقه في مدينة المال ساعتين خرجا منها الى مدينة العلم . فمرّا في طريقهما اليها بالحديقة العظيمة الواقعة بين هذه المدن الثلاث وهي ملتقى اهلها ومجمعهم ومتنزههم . فشاهد فيها جميل ورفيقه رهباناً وقسساً وشيوخاً وائمة ورجالاً وشباناً يحملون بايديهم كتباً وصحفاً وهم تارة يقرأون فيها وطوراً يتأملون وآونة يتذاكرون . فقال حليم لرفيقه هذه طلائع مدينتي العلم والدين . ثم مرّا قاصدين مدينة العلم دون ان ينتبه اليهما المقيمون في الحديقة

ولما وصل جميل ورفيقه الى مدينة العلم وجدا السكون والهدوء مخيمين عليها حتى انك لتسمع حين مرورك في الشوارع طنين الذباب في طيرانها . وكانت منازلها صغيرة حقيرة وشوارعها ضيقة . فارتاحت نفس جميل لما وجده من الهدوء فيها وقال : اين نحن من جلبة

تلك المدينة · غير ان البياض اذا اشتدَّ صار برصاً · ولذلك لم يوغل جميل في المدينة حتى صار ذلك الهدوء التام ثقيلاً على نفسه · فانه لم يكن يسمع حركة ولا يرى شخصاً في الشارع ولا يلمح يداً ولا وجهاً في النافذة · فكان كانه في مقبرة او مدينة اموات لا احياء · الا انه كان احياناً في مروره ببعض المنازل يرى شاباً مستلقياً على سريره وكتابه في يده او رجلاً يروح ويجيء في غرفته وهو يفكر ويتأمل كأنه متجرد عن هذا العالم· او قارئاً كتابه في يده ولكن فكره يسبح بعيداً في الفضاء الابدي

ولو لم يكن حليم ممن الف هذه الحالات واحبها لداخلته خشية منها وعراه نفور عنها · لان هذا الهدوء هدوء الاموات وذلك الانقباض البادي في وجوه النفر الذي رآه لما يبعث في النفس شعوراً رهيباً لمعرفتها ان ما يقع في ذلك الحين في وسط ذلك الهدوء الشديد مع ذلك الانقباض الاليم يجب ان يكون امراً رهيباً خطيراً تقف عنده النفوس رهبة واجلالاً · والنفس غير مخطئة في شعورها هذا لان ذلك الامر هو عبارة عن عراك ونضال بين الارض والسماء · والمعلوم والمجهول · والمادة والروح · والمحدود وما لا حد له · ذلك ان الانسان الترابي القاصر الضعيف يطلب الوصول بفكره الى الذي لا يصل اليه فكر والعقل المحدود يروم الاستيلاء على العقل الذي لا حدَّ له

وبعد ساعتين خرج حليم ورفيقه من مدينة العلم وقصدا مدينة الدين · وكان حليم يمشي وفكره مشغول للعواطف التي قامت في نفسه حين مروره في مدينة العلم · فهناك تجددت هواجسه كلها وبلغ اضطرابه معظمه · هناك كان ينتظر ان يرى العلم ضاحكاً باشاً لانه وجد ضالته فاذا به يراه كما عهده منقبضاً مظلماً يطلب ويفتش عبثاً · فانقبض صدر حليم ونسي في هذه الدقيقة حسناءه نسياناً حقيقياً · ومن هنا نقدر ان نستدل على اخلاق هذا الشاب استدلالاً مهماً ونعرف السبب الذي جاء من اجله الى هذه البلاد · فان الناس يضعون عادة حبهم فوق كل امر · وقد وضعه الملوك مرات كثيرة فوق تيجانهم وعروشهم · اما حليم فلم يكن يعرف احبَّ اليه من ان يعرف (١)

ولكن لم يلبث حليم ان دنا من مدينة الدين· وكان يسير اليها وهو مطرق مفكر بكل ما في فكره من القوة · ولكنه ما قرب من باب المدينة حتى سمع اصواتاً شقت الفضاء وناساً بانغام رخيمة يصيحون من اعالي المآذن ـ الله اكبر الله اكبر · لا اله الا الله· فالتفت حليم بغتة وقال هل وصلنا ؟ ثم سرّح بصره في المدينة التي امامه · وكان حينئذ دخول

---

(١) في الحديث « لا يكمل ايمان المرء حتى لا يعرف احبَّ اليه من ان يعرف »

الظهر والمؤذنون يدعون في المآذن الى الصلاة . فلبث جميل يتأمل فيهم من بعيد بلذة لا توصف وهو يتبع كل حركة من حركاتهم . وما كاد ينتصف الاذان حتى علت اصوات الاجراس ايضاً من قبب الكنائس . فامتزجت اصوات الاذان باصوات الاجراس تذكّر البشر في الارض بالخالق جلّ جلاله وتنبههم الى واجباتهم وتنذرهم بانهم ضيوف في هذا العالم . اما رفيق حليم فانه ضحك وقال : في بلادنا تستمرّ الصلاة الى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر في يوم الاحد اما في هذه البلاد فالظاهر انها تستمرّ الى الظهر . غير ان حليماً لم تكن نفسه مستعدةً للضحك في تلك الساعة لانها كانت تفكر في موضوع ارفع واسمى . فسرّح نظره في مدينة الدين بين اصوات المؤذنين الشجية ونغمات الاجراس الرخيمة التي تناجي السماء فراقهُ جمال هذه المدينة بجوامعها الخفيفة الجميلة ومآذنها الانيقة وكنائسها وقبابها المبنية اجمل بناء . وصار يقول في نفسه : هذه مدينة السلام لكثير من الناس . هنا مستقرّ السعادة والراحة للملايين من البشر . هنا وطن الاخاء والحب والحرية والسواء . هنا مدفن احقاد الانسانية ومصائبها ومتاعبها وصغائرها لو كانت تعلم

ولما دخل حليم الى مدينة الدين استغرب ما رآه فيها من آثار الثروة والنعمة والغنى . فانّ جوامعها وكنائسها ـ وكلها كانت كنائس وجوامع ـ كانت مبنية باتقان وزخرف يستوقف النظر . وكانت شوارعها فسيحة فيها الناس يروحون ويجيئون الى الجوامع والكنائس ومنها . وهم بين رجال ونساء بافخر زينة

فبعد ان جال جميل ورفيقه ساعة في المدينة وشاهدا ما فيها قال لرفيقه : لقد شاهدتُ الآن ما اردت مشاهدته من هذه المدن فهلمّ بنا الآن نذهب الى الحديقة التي هي مجمع اهلها ومتنزههم فقد بقي علينا الوقوف على دخائلها بعد ان وقفنا على ظواهرها

فقال صديقه ولكن الحديقة تكون خالية في وقت الظهر فاجل الى المساء دخولنا اليها وهلمّ بنا الآن الى فندق لنتغدى ونستريح فقد تعبنا

الفصل الرابع

﴿ الحديقة ﴾

والظاهر ان حليماً ورفيقه قد ناما قليلاً في الفندق بعد الغداء ولذلك لم يخرجا منه الا بعد العصر · فاقبلا نحو الحديقة وكانت غاصة بالناس من كل الطبقات

وكان في الحديقة ثلاث قاعات كبرى كل واحدة منها قائمة في احد جوانب الحديقة · فكان كل فريق من سكان مدينة العلم والدين والمال يجتمع في احدى هذه القاعات للبحث في شؤونهم واحوالهم · فكانت قاعة اهل المال عباره عن بورصة صغيرة وقاعة اهل العلم عبارة عن مكتبة كبيرة · وقاعة اهل الدين نصفها مكتبة ونصفها مجتمع للحديث

فلما دخل حليم ورفيقه الى الحديقة شاهدا الناس منتشرين في اطرافها بين اشجارها الجميلة وازهارها العطرية واكثرهم يتحادثون ويتجادلون بجدّة · غير ان دخول هذين الزائرين الغريبين الى الحديقة نبّه المتنزهين فيها اليهما فصاروا يقلبون انظارهم في هيئتهما وملابسهما · فقال حليم حينئذ لرفيقه : ان القوم قد التفتوا الينا فاذا سألك احد عن اسمي فقل له انني ادعى جميلاً وصناعتي التجارة وقد جئنا نستبضع من مدينة المال · واياك ان تذكر لاحد اسمي فانني اكره الرسميات في سياحتي هذه

وبينما كان حليم يوصي رفيقه بهذا الامر على مقربة من قاعة اهل العلم كان ثلاثة شبان وقوفًا قرب هذه القاعة وهم يتفرسون بهما جيدًا · ثم سمع احدهم يقول لا شك انه هو لانني شاهدت صورته قبل اليوم في احدى مجلاتنا · فقال الآخر لا يبعد ان يكون هو بعينه فان منظره اللطيف الهادئ لا يكذّب شهرته الواسعة · وحينئذ انفرد المتكلم الاول عن رفيقيه وسار نحو حليم وصديقه بخطى واسعة وهو يبتسم

فلما رآه حليم قادماً بهذه الهيئة لم يشك في كونه قادماً لمخاطبته فتشاغل عنه بمحادثة رفيقه · اما الشاب القادم فانه لما صار على مقربة منه مدّ يده اليه مسلماً وقال باحترام وبشاشة : ارجو ان تسمح لي بسؤال ياسيدي · هل تريد ان تشرّفني بمعرفتك · فتلعثم حليم قليلاً لانه كره الكذب ثم اجاب : نحن ضيوف يا سيدي في المدن الثلاث الجميلة وقد جئنا لمشاهدتها والاستفادة من اهلها الكرام · فقال الشاب نعم لا ريب عندي في انكم ضيوف ولكني اول ما وقع نظري على جنابك تذكّرت انني شاهدت هذا الوجه قبل الآن

في احدى مجلاَّتنا . أَلست جنابك الخواجا حليم المصوّر الطائر الصيت

فلما رأَى حليم انهم عرفوه ضحك واجاب : ان ذكاءكم في هذه البلاد غريب ياسيدي فانكم تعرفون الرجل من غير ان تعرفوه

فلم يتمالك الشاب ان عاد وثباً الى رفيقيه واخبرهم ان ذلك الضيف هو المصوّر حليم نفسه . فانتشر هذا الخبر بسرعة البرق في الحديقة كلها . فصار الناس يتداعون لمشاهدة الرسام الطائر الصيت الذي بارى في هذا الفن اشهر الرسامين وطارت شهرته في جميع اقطار العالم . ولم تمض دقيقتان حتى اجتمع كل من في الحديقة من اهل العلم والمال والدين حول حليم ورفيقه وصارت الاعناق تتطاول اليهما من كل صوب . فازداد الورد في وجنتي حليم خجلاً من ذلك لانه كان كثير التواضع قليل الجرأَة على مقابلة آلهة الشهرة. ولكنه لم يكن ضعيفاً الى حد الجبن . ولذلك رفع رأْسه بعد ذلك الحياء بجرأَة وبشاشة وحيّا بهزّ رأْسه باسماً . وكان الجمع الذي حوله في حركة في ذلك الحين ثم انفرد منهم خمسة بينهم رجال من اهل المال والعلم والدين وتقدموا نحوه . فتبعهم باقي الجمع زاحفين نحو حليم كالجند وهم كالبناء المرصوص . فخطا حينئذ حليم نحوهم بخطى واسعة وهزّ الايدي التي كانت تُمدّ اليه من كل جانب كأنها اغصان مشتبكة

ومنذا هذا الحين فقد حليم نصف لذة السفر لانه صار مقيداً بعد ان كان مطلقاً يروح ويجيء كما يشاء . الا ان خسارته هذه لا تعادل الفائدة التي استفادها في ساعة واحدة بعد ان عرفه اهل هذه البلاد . فانه صار دفعة واحدة في وسطهم فاصبح قادراً على الوقوف على كل ما اراد الوقوف عليه منهم

وبعد ان جلس حليم واستراح برهة حدثهم في اثنائها عن سفره وما شاهده في المدن الثلاث همّ بالاستئذان فدنا منه الشاب الذي كان اول من عرفه وقال : لي على جميع اخواني حق التقدم لانني كنت اول من تشرف بمعرفتك . فانا ارجو ان تتخذني صديقاً ورفيقاً لك في هذه الديار لادلّك في سياحتك. فشكر له حليم لطفه وادبه . ثم نهض يطلب الخروج من الحديقة وكل جوارحه تتمناه . فهمس ذلك الشاب في اذنه قائلاً : أَلا تحضر الاجتماع الليلة في الحديقة . فقال حليم واي اجتماع . فقال الشاب : ان الليالي الثلاث القادمة ليالي في غاية الاهمية. فان السكان عزموا على الاجتماع فيها ثلاث مرات لحلّ بعض المشاكل التي بينهم والتي هي سبب النزاع والخلاف بين طبقاتهم . ولا ريب انّ خراب مدننا الثلاث وعمرانها يتوقفان على نتيجة هذه الاجتماعات. والليلة الاولى مخصوصة بالمال.

والليلة الثانية بالعلم . والليلة الثالثة بالدين - فقال حليم ساحضر هذه الاجتماعات لا محالة . ثم ودّع وخرج مع رفيقيه وهو يقول في نفسه انه قد جاء في احسن الاوقات واهمها

الفصل الخامس

تمهيد الجلسات الثلاث

«رجاء الشيخ الرئيس»
وشكاوى اهل العلم والدين والمال

وفي المساء برزت الحديقة بالانوار الساطعة واقبل الناس عليها من الجهات الثلاث واكثرهم سكوت كانهم يفكرون في امر عظيم . وكانت اشكال ملابسهم تدل على انهم من طبقات مختلفة بين تجار وعمال واهل علم واهل دين . وكان كل فريق مشغولاً عن الفريق الآخر بمناجاة حزبه همساً استعداداً للجدال العلني الشديد . وما دخلت الساعة التاسعة مساء حتى غصت الحديقة بالناس على اتساعها وجلسوا ينتظرون . وكان حليم ورفيقه قد اختارا مقعداً في زاوية مظلمة قريبة من دكة الرئيس فكانا يشاهدان الحاضرين دون ان يشاهدهما احد

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الاولى جلس رئيس ذلك الاجتماع على كرسيه وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث . وكان شيخاً جليلاً في نحو الثمانين من العمر وهو بقية الشيوخ الذين عاصروا الشيخ سليمان مؤسس هذه المدن . فلما سكنت الضوضاء اخذ يقول

ايها الابناء الاعزاء

قد عزمتم على عقد ثلاثة اجتماعات كبرى لتتباحثوا في مسائلكم المهمة والمشاكل التي نغّصت عيشكم وعطّلت اشغالكم وقسمت قلوبكم وعيالكم . فيسرّني انا حاكمكم وابوكم ان تؤدي هذه الاجتماعات الى قطع كل ما بينكم مِن اسباب النزاع والخلاف حرصاً على سعادتكم وعلى عمران مدننا الثلاث التي تعبنا في انشائها وترقية شؤونها . انما قبل الشروع في المباحثة اتمنى من صميم قلبي امراً . وهو ان يجتنب كل فريق منكم في اثناء كلامه كل قول يسوء الآخر فان الانسان يستطيع ان يصرّح بادب ولطف بكل ما توجب عليه مصلحته التصريح به . ولا يجدي العدوان والشدة نفعاً . وانني اسال الله ان يوفق اعمالكم ويسدّد آراءكم وينير عقولكم

فهنا حصلت ضجة بين بعض من اهل العلم . فانتصب رجل من فريق الدين وقال بصوت جهوري : ماذا ? هل صرتم تكرهون ان تسمعوا اسم الله ايضاً . فصرخ خمسون عاملاً من العملة كانوا جالسين قرب فريق اهل العلم : كذاب كذاب . فانتصب حينئذ احد هؤلاء وكان اقربهم الى العملة وقال مخاطباً فريق اهل الدين : لا تبدأوا بالعدوان اذا كنتم مخلصين في طلب المسالمة . فقال الشيخ الرئيس حينئذ :

— لستُ اجهل سبب الضجة التي حصلت بين بعض من الابناء . فانهم لا يزالون يطلبون ترك المسائل الدينية للجوامع والكنائس ولذلك لا يجيزون لحاكمهم ان يلفظ عبارة دينية في منصبه الرسمي . وانا على ثقة من ان ذلك لم يكن منهم عن انكار للمسائل الدينية بل عن رغبة في الفصل بين شؤون المذاهب المختلفة . ولكني اظن انهم يُجيزون لشيخ بسني صار قريباً من القبر ان يستسلم لعواطفه احياناً

ثم قال الرئيس

— اما الآن فاننا نسمع الشكاوى التي اجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نية . ولنعلمن قبلُ نوعها وتفصيلها

فنهض حينئذ زعيم العملة وقال

— ان شكوى العمال من طمع ارباب الاموال . فالعمال يتعبون ويجنون وارباب الاموال يتمتعون بتعبهم ويتلذذون . فمن العدل ان يشارك اولئك هؤلاء في كل الاشياء

فنهض النائب عن ارباب الاموال وقال

— ان شكوى ارباب الاموال لم تكن من العملة انفسهم فاننا نحب عمالنا كما نحبُّ اولادنا . كيف لا وهم رفقاؤنا وشركاؤنا في اعمالنا . وانما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرّضون طبقتهم على طبقتنا . فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرّضين فيستتب السلام بين الجميع

فنهض رجل من فريق العلم وقال

— اذا صحّ انه متى رُفعت يد الذين يُسمونهم « محرضين » من بين العمال واصحاب الاموال فان السلام يستتبُّ في الحال فقد زال نصف شكوى اهل العلم . وانما يبقى عليهم في هذا الموضوع ان يبحثوا هل يرافق السلام الذي يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم ام يبقى سلامهم موتاً ادبياً ومادياً كسلام اهل القبور . واننا معشر اهل العلم نفتخر في هذا العصر باننا حللنا في هذه المسألة محل اهل الاديان وصار همنا الاول التفكير

بانهاض الشعوب وترقيتها بينما نرى اهل الاديان يسلّمون الشعوب بايديهم الى الاطماع المختلفة . فكان مثلهم مثل ملوك يخلعون انفسهم بانفسهم . ولذلك تراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وارباب الاموال ويجارونهم في كل شيء حتى في ما يخالف مبادئهم الدينية وينقض اساسها ويلهون الشعب في اثناء ذلك بالتدجيل عليه ليشغلوه بالاوهام والاحلام عن مصالحه الحقيقيَّة . فغرض العلم في هذا الزمان تفتيح عيني الشعب وترقية احواله والضرب على ايدي المدجلين . وشكواه من كل من يحاول منعه من الوصول الى هذا الغرض الشريف

فهمس حينئذ واحد من اهل العلم كان قريباً من الخطيب في اذن جاره قائلاً : ليت اصحابنا انابوا عنهم خطيباً اكثر اعتدالاً من هذا الخطيب فان مقاماً كهذا المقام لا يفيد فيه غير التأني والاعتدال . اما رأيت السياسة التي اتخذها نائب ارباب الاموال

وكان قد نهض نائب فريق الدين فقال

ـ اما شكوانا نحن خدمة الله تعالى فمن اولئك الكفرة الجاحدين الذين يبثون روح ضلالهم وكفرهم في النفوس . فاننا والحق يقال لولاهم لكنا كلنا في الف نعمة من الله تعالى . فانهم بدأوا ضلالهم بيننا بتعليم اولادنا مبادئهم الطبيعية الممقوتة والعياذ بالله . ثم تدرَّجوا منها الى انكار المذاهب المختلفة فالوحي وجحود الخالق سبحانه وتعالى . فما دام هؤلاء المفسدون يفسدون عقول الناس فلا سلام ولا راحة عندنا

فقال الشيخ الرئيس حينئذ : نعم هذه هي الشكاوى المختلفة التي مرَّ عليَّ عشرات سنوات وانا اسمعها . فاستحلفكم بكل ما هو عزيز ومقدس لديكم . استحلفكم بالشيخ الجليل المحسن الى هذه المدن والواقف الآن بيننا في وسط الحديقة على تمثاله الرخامي يسمع كلامنا وينظر الينا — ان تكسروا حدتكم قليلاً وتتباحثوا في مشاكلكم بسلام وادب . فاننا كلنا يا ابنائي اخوان . وكلنا في هذه الارض ضيوف وغرباء

اجارتنا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب قريب

وانتم تعلمون ان الانسان لا يعيش في الارض عمرين وان ايامه فيها معدودة . فلماذا لا يصرف هذه الايام بما يدعو الى الراحة بدل ان يصرفها في خصام صبياني . هل ان حطام الدنيا وخيراتها الزائلة ومسراتها الفانية تستحق هذا الاقتتال الشديد عليها . اما سمعتم ذلك القول البديع المنسوب لحكيم عظيم (١)

«١» فيلسوف العرب والعجم ابي نصر الفارابي

اخي خلِّ حيِّز ذي باطلٍ وكن للحقائق في حيِّزِ
فما الدار دار مقامٍ لنا وما المرء في الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على اقلَّ من الكلم الموجز
وهل نحن الاَّ خطوط وقعن على نقطة وقع مستوفز
محيط السماوات اولى بنا فماذا التنافس في مركز

فتباحثوا الآن في مسائلكم واذكروا ان عمران مدننا وخرابها متوقفان على نتيجة بحثكم . ولنبدأ اولاً بمشكلة العمال وارباب الاموال وان كانت هذه المسائل كلها مرتبطة بعضها ببعض

الفصل السادس

الجلسة الاولى

المال ومشاكله

فساد حينئذ في الحديقة سكوت تام لم يُسمع في اثنائه سوى حفيف الاوراق وهمس بعض السيدات اللواتي كن جالسات على مقعد في زاوية مقابلة للزاوية التي جلس فيها حليم ورفيقه . وكان حليم قد بدا يرمي ببصره الى هؤلاء السيدات منذ لمح وجودهن هناك لعله يجد ضالته بينهن

دعوى زعيم العمال

و بعد دقيقة تقدم زعيم من زعماء حزب العمال وقال مفتتحاً البحث

ـ لقد احسنتم في تخصيصكم الجلسة الاولى بمشاكل العمال واصحاب الاعمال لان هذه اكبر المشاكل في الحقيقة . ومتى حللناها حللنا معها سواها . ولكن لا سبيل الى حلها الا بطريقة واحدة . وهي إشراك العمال في ربح الاعمال . فاننا الآن نخدم اصحاب الاعمال كما يخدم العبد سيده . واسعدنا حظاً واعظمنا قدراً يتناول في الشهر مائة فرنك . اي يأخذ في السنة اجرة لعمله ١٢٠٠ فرنك . فاذا افترضنا ان عددنا في العمل ٣٠ عاملاً كان مجموع ربحنا جميعاً في العام ٣٦ الف فرنك . على حين ان ذلك العمل يربح في كل عام مليون فرنك ربحاً مجرداً . وكل هذه القيمة تذهب وتنصبُّ في صندوق صاحب العمل مع اننا نحن

السبب في ربحها . فاية عدالة عند الله والناس تُجيز هذا الامر . واي دين يرضى بان يسعى مائة وواحد يأكل

« ولكن فلنترك مسألة الربح جانباً ولننظر الى مسألة اخرى . وهي ان بين العمال المستخدمين قوماً لا يتناولون في اليوم اكثر من فرنك واحد اجرة لهم . فكيف يمكن ان يكفيهم هذا الفرنك خصوصاً اذا كان لهم اولاد عليهم القيام باودهم . أليس ذلك عبارة عن ضرب الشقاء والذلة عليهم مدى العمر

« ثم ان العامل قد يمرض وقد يعجز وقد يموت . فماذا يحل به وبعائلته اذا كان قد صرف حياته كلها في خدمة صاحب العمل ولم يعد قادراً في مرضه وفي آخر عمره ان يكسب رزقه بعرق جبينه . ايموت جوعاً هو وعائلته . ام يدور في المدينة يستعطي

« لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشري ان تنصفونا فاننا نحن الاكثرية في البلاد . وبدوننا لا تقدرون ان تصنعوا شيئاً . فنحن نحارب لرد غارة العدو . ونحن نفلح الارض لنخرج منها القوت والغذاء . ونحن نخدم في دوائر الحكومة والمحال العمومية والخصوصية . ونحن ندير المصانع ونصنع المصنوعات وننسج الانسجة . فحرام ان نصنع كل شيء وعلى ظهورنا تُلقى كل الاحمال ثم تترك الحكومة فريقاً قليلاً من اصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخّر لنفسه الامة كلها

فصاح به حينئذ صائح من فريق المال

ـ ولكن ماذا تريدون ان تصنع الحكومة . هل من حقها ان تتداخل بينكم لتجبر ارباب الاعمال على زيادة اجوركم او مقاسمتكم ارباحهم . أَلا تعلمون ان لاصحاب الاموال الحق المطلق في التصرف باموالهم واملاكهم كما يريدون . وان الحكومة لا يمكنها التعرض لحق الملكية لانه من الحقوق الطبيعية التي لا تُنقض

فاجاب الخطيب زعيم العمال

ـ هذه شنشنة عرفتها من اخزم . فكأنكم نسيتم ان هنالك مذهبين متناقضين واحد معكم وواحد عليكم . ومما يحق لنا الفخر به نحن العمال الصغار ان مذهبنا في هذه المعضلة موافق لمذهب جميع شارعي الاديان من موسى الى يسوع الى محمد . فان هؤلاء الكواكب الثلاثة الذين اناروا سماء الشرق والعالم قاطبة لو عادوا اليوم الينا لكانوا من حزبنا . ذلك لانهم يعلمون ان كل هيئة اجتماعية تُبنى على ظلم الفئة الكبرى وراحة الفئة الصغرى هيئة فاسدة ستسقط لا محالة . فاذا كان في حزبكم فلاسفة كبار وعلماء اعلام ففي حزبنا من هم

فوق العلماء والفلاسفة · ثم هل تريدون منا فلاسفة فاسمعوا رأي الفيلسوف كارل ماركس

فضحك هنا بعض فريق المال وقال احدهم

ــ ما شاء الله · تستشهدون باشدّ انصاركم غلوًا

فقال الزعيم

ــ لا بل نستشهد بفيلسوف من الفلاسفة رأيه يناقض رأيكم في الملكية · فانكم تقولون ان ارباب الاموال مطلقو التصرف في معاملهم ومصانعهم ومتاجرهم · اما نحن فنقول لكم مع هذا الفيلسوف انكم في خطاء عظيم. فان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها واراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهر والابحر والهواء · ولذلك لا يجوز ان تكون ملكاً لفردٍ ايًا كان بل هي ملك لجميع الامة · فعلى الامة اذًا ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها · اي ان الحكومة تجعل نفسها التاجر الكبير الوحيد الذي تنحصر في يده تلك المتاجر والمصانع والمزارع وتستخدم فيها افراد الامة وتعطيهم اجرتهم من تلك البضائع نفسها اي من عين المال كلاً بقدر حاجته وكفاءته · والعامل يستطيع ان يستبدل البضائع التي تجتمع عنده باي بضاعة احتاج اليها ·ــ هذا ما يراه بعضهم عدلاً وانصافًا . ونحن لا نطلب منكم كل هذا فاننا نترك لكم مصانعكم ومعاملكم ومتاجركم واراضيكم · وانما نطلب منكم ان تعطوا نصف ربحها في كل عام للعمال والمستخدمين الذين يخدمونهم فيها وتبقوا النصف الثاني لكم

« ولا تقولوا انا قد طلبنا شيئًا كثيرًا فاننا لا نطلب الا حقوقنا. لقد كرهت نفوسنا الخدمة بالاجرة كالاجراء· لقد كرهنا هذه العبودية الجديدة التي اخترعها التمدن الجديد · فاذا لم تنصفونا وتريحونا منها فاعلموا اننا نحذو حذو شمشون اذ نأخذ باعمدة الهيئة الاجتماعية ونشدها قائلين « علينا وعلى الجميع يارب » فيسقط البناء علينا وعليكم .

« ايها الاخوة · ان نور الشمس ونسيم الصباح وحنان الامهات ورغد العيش ومسرّات الاجتماع وراحة البال ــ كلها لم تخلق فقط لارباب الاموال · فان الله العادل خلقها لجميع البشر على السواء · ونحن معشر الفقراء المساكين من جملة البشر · فانظروا الينا وارحمونا· صدقونا ان لنا نفوساً كنفوسكم تتألم من المصائب والفقر والشقاء · وان لنا اولاداً كاولادكم ونساء كنسائكم يجب علينا سدّ حاجاتهم · صدقونا ان الطبيعة ــ تلك الطبيعة القاسية الظالمة ــ لم تخصنا بخواص الجماد · فانها من ــ سوء حظنا ــ جعلت لنا معداً تتألم من الجوع· وقوى تخور اذا لم تُغذّ · ونفساً تفضل الجحيم احيانًا على هذه الحياة · وهذا ما يدفعها مرارًا الى اقصى حدود الوحشية : كالفوضوية وما اشبهها · في ايديكم الآن يا ابناء

الوطن خراب بلادكم او عمرانها »

وما سكت زعيم العمال حتى قامت ضجة في صفوف اهل المال فصاح احدهم : يتهددوننا بالفوضوية . وصاح آخر : لا نخافهم فوراءنا جيش الحكومة . ولكن لم يلبث ان نهض زعيم اهل المال واشار الى رفاقه بالسكوت ثم اخذ يقول

دعوى اهل المال

ايها السادة

ـ مسألتنا مع عمالنا مسألة قديمة منذ وجود الانسان في هذه الارض . فمنذ وجد فيها رجل نشيط قوي مدبر عامل ورجل ضعيف ساذج مهمل تسلط الاول على الثاني واستخدمه في ما فيه مصلحتهما معاً . وان هذا الاتفاق بين القوي والضعيف ـ بين الرأس المدير الآمر والجسد المدار المأمور ـ بقي وثيقاً وطيداً الى ذلك اليوم الذي قام به الحسد والطمع يحرّضان الضعيف على القوي ويغريانه بان يعطل اعماله ان لم يشاركه فيها . فالحسد والطمع سبب كل هذا الخلاف

«ولقد كان العمال قبلاً يشكون من ان اجورهم قليلة وشغلهم كثير . فانهم كانوا يعملون من شروق الشمس الى ما بعد غروبها واسعدهم حظاً كان يتناول فرنكين في النهار . فرأينا ان نخفف عنهم فجعلنا اوقات عملهم ٨ ساعات في النهار (١) وابلغنا راتب الواحد منهم الى مائة فرنك . ثم انشأنا لهم منازل صحية رخيصة الاجرة ليقيموا فيها . واعتنينا بنسائهم واولادهم في اوقات الولادة والمرض . ولكن كل هذا لم يقنعهم بل تدرّجوا من طلب الى طلب حتى وصلوا الى طلب مشاركتنا في مصانعنا ومتاجرنا ومزارعنا . فاذا اجبناهم اليوم الى ذلك فانهم لا يلبثون ان يطلبوا غداً طردنا منها ليستولوا عليها من دوننا

«فاعلموا ايها السادة انكم الان بازاء الطمع والحسد الاجتماعي لا بازاء مظالم بشرية كما يقولون . والويل لحكومتنا ولهيئتنا الاجتماعية اذا تركتموها تخضع للطمع والحسد . ولا ريب عندنا ان حرصكم على مصلحة وطنكم المرتبطة بمصلحة اهل المال والاعمال اشد ارتباط سيجعلكم تردّون دعوى العمال لا محالة

«ذلك انكم تذكرون ولا بدّ في هذا المقام اموراً عظيمة تتوقف عليها حياتنا وحياة بلادنا

«١» سبق البرلمان الانكليزي سائر الامم بتعيينه في العام الماضي ساعات العمل في المناجم ٨ ساعات فقط . وهذه المسألة يهتم بها العمال في كل مكان اهتماماً عظيماً . و ينكرها اصحاب الاعمال لانها تعطل اعمالهم

(الامر الاول) منزلة اهل المال في الهيئة الاجتماعية . فانكم تعلمون ايها السادة اننا مصدر ثروة البلاد وحياتها . فبتدبيرنا وسعينا ننشئ المتاجر الواسعة والمصانع العظيمة والمزارع الخصيبة وندرُّ على الامة بها اخلاف الثروة . ولو شئنا ان نحبس اموالنا ونقفل صناديقنا ونبطل سعينا لماتت الامة في سنة واحدة . والحكومة التي قراطيسها المالية في ايدينا تعرف ذلك حقَّ المعرفة . وان قيل لكم ان العملة واهل العلم سبب هذه الثروة فاجيبوهم: لماذا اذاً لا يستغنون عنا و يتصرفون بهذه الثروة كما يشاءون دون حاجةٍ الينا اذا كانوا صادقين . ولكنهم غير صادقين لانهم يبالغون في نسبة الفضل اليهم . فانهم بينما يكون الواحد منهم غائصاً في احلامه واوهامه يكون فكر الواحد منا حائماً حول متاجر الارض ومصانعها يفتش عن ثروة جديدة لبلاده . بينما يكون احدهم منهمكاً بكتابة مقالة على مائدته (حبر على ورق) او نظم شعر في غرفته (هباء في الهواء) فان احدنا يُسمع الامة موسيقى اجمل من موسيقى الشعر و يريها جمالاً ابهى من جمال الادب : اعني به جمال الذهب الذي ينساب من صناديقنا قناطير قناطير و ينشر الراحة والسعة والخيرات في طبقات الامة كلها . فاذا كنتم ايها السادة في غنى عن هذه القوة التي لا تعادلها في الوجود قوة فاخبرونا ذلك ولا تخجلوا منا

(الامر الثاني) حفظ مركز الامة الصناعي والتجاري والزراعي . فانكم تعلمون ان المزاحمات الصناعية والتجارية قائمة في الدنيا على ساق وقدم . والنصر النصر في هذه المزاحمات لمن يصنع المصنوعات والبضائع بارخص الاثمان . فاذا حكمتم علينا بزيادة اجور العمال وتقليل مدة العمل او اشراكهم فيه كنتم كأنكم تحكمون باقفال معاملنا ومتاجرنا لاننا بعد ذلك لا نستطيع مزاحمة المعامل الاجنبية

(الامر الثالث) حفظ شرائعنا المقدسة حفظاً مطلقاً . فان حق الملكية حق مقدَّس لا يجوز للحكومة مسه . ونحن بموجب هذه الشرائع مطلقو التصرف في املاكنا ومزارعنا ومتاجرنا . فاذا رامت الحكومة الضغط على حرية الملاك نقضت الشريعة والنظام نقضاً يخشى منه بعد ذلك على اساس هيئتنا الاجتماعية

(الامر الرابع) ايقاف تيار الاشتراكية عند حده . فان هذه الآفة الكبرى قد عظم خطبها وجل امرها . ولذلك طريقتان بسيطتان (الاولى) امتناع الحكومة عن المداخلة بين العمال واصحاب الاعمال لان ذلك ليس من وظيفتها (والثانية) ابطال الحكومة جمعيات العملة اي عدم معرفتها اياها رسمياً ومنع مداخلتها بين العمال واصحاب الاموال . فان

الشر كل الشر وارد من هذه الجمعيات التي تحرض العملة وتغرر بهم بوعود باطلة ٠ وهنا مهد الاشتراكية ٠ اذ متى فرّقت الحكومة هذه الجمعيات استؤصلت جرثومة الاشتراكية لسقوط نيرها عن اعناق العمال المساكين وصار ارباب الاعمال يحلون مشاكلهم معهم بكل لطف وسلام

(فقهقه هنا بعض في صفوف العمال وصاح احدهم : هذا وعد الهرة للفأر ان لا تأكله)

فقال زعيم اهل المال من غير ان يجاوبه

(والامر الخامس) هدم التجارة والصناعة والزراعة متى صار صاحب المعمل شريكاً لعماله ٠ ذلك لان هذه الفنون المتشعبة العظيمة تقتضي وحدة الادارة واطلاق الارادة ٠ فمتى كان صاحب العمل مقيداً باراء عماله فقد خرب العمل لا محالة وخمدت نار النشاط والاقدام الشخصي على الاعمال لان الفرد لا يعود يخاطر بماله ووقته وذكائه من اجل غيره

(والامر السادس) ان تذكروا ايها السادة ان حكومة بلاد كبلادنا لا يليق ان تُبنى على الاوهام والاحلام ويُلقى زمامها الى اصحاب التصورات والتخيلات ٠ ان المخلوقات كلها قد خلقها الله طبقات مختلفة ٠ ففيها القوي والضعيف والكبير والصغير والخامل والنبيه ٠ وما الاشتراكية التي تحاول جعل جميع الناس متساوين الا وهم وخيال ٠ فهي تطلب مثلاً ان توزّع ثروة الدنيا واراضيها على جميع البشر بالسواء حتى لا يكون فيهم فقير وغني بل يكونوا كلهم في مرتبة واحدة ٠ فهل سُمعت خرافة كهذه الخرافة : وهب اننا وزعنا اموال الدنيا واراضيها بين الناس بالسواء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة ان الكسالى والجهلاء والضعفاء والخاملين والمسرفين ينفقون اموالهم ويبيعون اراضيهم بعد مدة وجيزة فيحصرها ويستولي عليها المجتهدون والمقتصدون واهل الذكاء والتدبير ٠ وحينئذ تعود الحالة الى ما هي عليه اليوم ونرجع الى ما نحن فيه ٠ فهل تريدون ضعضعة اساس الهيئة الاجتماعية من اجل تجربةٍ كل التاريخ البشري في الارض يشهد بفسادها ٠ كلا ٠ لا تخالفوا نواميس الاجتماع والطبيعة نفسها ٠ ان نواميس الطبيعة الثابتة تُثبت هذا الامتياز بين المخلوقات ٠ ولذلك يأكل قوي الحيوانات ضعيفها ٠ اية قوة في العالم تقدر ان تساوي بين الذئب والحمل والهرّة والفأر والبازي والعصفور ٠ اية قوة تقدر ان تنقض ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل في الارض ٠ ان هذا الناموس وحده كافٍ لنقض مذهب الاشتراكية ٠ ففي الحياة طبيعياً واجتماعياً وسياسياً القوي يقوم والضعيف يسقط ٠ وهذا سبب انقراض كثير من الامم وقيام كثير من الشعوب ٠ فمن اراد جرّ القوي من طبقته وانزاله ليساوي

بينه و بين الضعيف كان كمن يهدم قوة الهيئة الاجتماعية و يجعل جميع افرادها ضعفاء خاملين بحجة المساواة بينهم »

« ولقد ختم نائب العمال كلامه بذكر كارل ماركس و بتهديده لنا . فنحن نشك في رضائكم عن هذه المبادىء لانكم تعلمون عقباها . انكم لا تجهلون ان دعامة مذهب كارل ماركس اعتقاده بان الحكومات لا يمكن ان تهب الشعب والعمال من تلقاء نفسها حق الاستيلاء على مرافق الامة ومنافعها لان رجال هذه الحكومات من اهل المال الذين هم في رأيه اعداء للعمال . ولذلك يوجب على الشعب ان يغتنم احدى الفرص و يهاجم الحكومة و يستولي عليها . وبعد ذلك يتصرف بها طبقاً لمصلحته من جعل المعامل والمتاجر والمصانع والمزارع ملكاً للامة نفسها واعطاء اصحابها تعويضاً عنها . فاذا كانت هذه مبادئهم ايها السادة فما هذا التحكيم والرغبة في المسالمة الا رياء لا ينطلي محاله علينا

« فهم استحلفوكم ايها السادة باسم الاخاء الانساني ان تجيبوهم الى طلبهم اما نحن فنستحلفكم باسم دستورنا وعمران بلادنا ومستقبل امتنا وشرف صيت حكومتنا عند الامم ان تردوا هذا الطلب »

وما جلس زعيم اهل المال في مجلسه حتى اضطربت صفوف العمال وصفوف اهل العلم المجاورة لها . ثم انفرد احد رجال العلم وقام . فشخصت اليه جميع الانظار واشرقت وجوه العملة لانه كان معروفاً عندهم . فابتدأ هذا الخطيب خطابه قائلاً

دعوى اهل العلم

ايها السادة

« كان في نيتي ان لا اتكلم اليوم بل غداً ولذلك سمعت كثيراً من الاقوال والمزاعم التي تقتضي الرد دون ان تتحرك نفسي للرد عليها . غير ان كلمة واحدة لفظها خطيب اخواننا اهل المال في آخر مقاله اثارت نفسي للكلام رغماً عنها

« فهو ايها السادة استحلفكم في آخر خطابه « بمستقبل امتنا » ان لا تجيبوا الشعب الى ما طلب من مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم . فهذا الاستحلاف « بالمستقبل » امر مدهش ايها السادة في مسألة كهذه المسألة . المستقبل؟ بالله دعوا المستقبل لله . وهل تعتقدون حقيقة ان الانسانية ستكون في المستقبل على ما هي عليه اليوم من الشقاء . اتصدقون ان اكثرية البشر سيبقون في المستقبل عبيداً وخداماً للاقلية . ايدخل في تصديقكم ان الشعوب ستبقى ضعيفة ضئيلة تحت نير الاجتماع اقوياؤها يموتون ضنىً وجهاداً في هذه الحياة

لانهم لا يكادون يقدرون على تحصيل رزقهم ورزق اولادهم وضعفاؤها يموتون جوعاً وبرداً في الشوارع والاسواق وعاجزوها يعاملون معاملة الكلاب — بينما افراد قليلون في المدينة يجمعون قناطير الاموال

« اذا كنتم تعتقدون حقيقةً بذلك فقد انكرتم الله وجحدتم العدالة وقررتم الاباحة وبررتم قول من يقول : بطون تدفع وارض تبلع فلا نظام ولا ناموس

فصاح حينئذ واحد من صفوف رجال الدين

— هذا قول بارد · فان الانسان حرٌّ · وله ان يتصرف بحريته كما يشاء · ولذلك كان مسئولاً عن اعماله · وما الحيلة بسنة تنازع البقاء

فاستشاط الخطيب حينئذ وصاح مخاطباً فريق الدين

— لله ما اجهلكم

فاجابه ذاك

— لله ما احمقكم

فقال الخطيب :

— نعم نحن نحمق من جهلكم · أَلا تعلمون ان سنّة تنازع البقاء هذه سنة وحشية تناقض كل سنة دينية · أَلا تعلمون ان السنة الدينية ما وضعت الا لمقاومتها · أَلا تعلمون ان رجال الدين اذا قالوا بها كانوا كانهم ينتحرون وينحرون مبادئهم

« سنّة تنازع البقاء معناها ان كل واحد من البشر يسعى لنفسه ويجاهد رفيقه ليستأثر بالمنافع والخيرات دونه · وتكون خاتمة هذا الجهاد ان الاقوى يكون الفائز · والضعيف يُغلب ولا بأْس ان يموت ايضاً لان الهيئة الاجتماعية في غنى عنه · وبعض المتقدمين كانوا يقتلون اطفالهم الضعفاء وفقاً لناموس بقاء الافضل · فهذه الحالة هي حالة الحيوانات تماماً ايها السادة·· كذا تحيي وتعيش وتموت وتنمو او تنقرض · فهل صار من فخرنا في تمدننا هذا ان نقتدي بالحيوانات في معيشتها الدنيئة

« فمبدأ تنازع البقاء وبقاء الافضل مبدأ فظيع وحشي يهدم كل ما بنته الاديان وكل ما وضعه الفلاسفة وعلماء الآداب في الارض · اذ ما الفائدة من مراعاة الآداب والفضائل ما دامت الطبيعة تسنُّ ان للقوي ان يتمتع بكل قواه · ولماذا توضع الحدود والشرائع لكف الناس اذاهم بعضهم عن بعض ما دام القوي معذوراً في اعتدائه لانه يعمل وفقاً للناموس الطبيعي · ولماذا نكذب الاديان وتحثنا على الخير والبرّ والرفق والزهد والوئام والسلام مادام

كل هذا مخالفاً لناموس تنازع البقاء والكلمة العليا هي لهذا الناموس دائماً . اليس ذلك بمثابة غش للضعفاء من اجل منفعة الاقوياء

« فرحماكم لا تخلطوا بين الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية . ان تنازع البقاء وبقاء الافضل امران صحيحان في الحالة الطبيعية . وهنالك لا مرد لهذين الناموسين الهائلين . لذلك ياكل القوي الضعيف ويسحق الكبير الصغير كما تصنع الحيوانات الوحشية . اما في الاجتماع فان الحالة تختلف كل الاختلاف . ذلك ان الحكومة قد اخذت على نفسها من حين عزم البشر على الاجتماع والمعيشة معاً في مدينة واحدة « ان ترفع ظلم القوي عن الضعيف وتمدّ الضعيف بالقوة ليعيش بامن وسلام » وهذا ميثاق معقود بين الحكومة والناس . وبموجبه يعيش في المدن جنباً الى جنب الاقوياء والضعفاء . الاغنياء والفقراء . المرضى والاصحاء . فلزم عن هذا اذاً ان يكون للحكومة حق التداخل لرفع ظلم القوي عن عنق الضعيف كلما شكا الضعيف من الظلم . اي ان وظيفة الحكومة الاصلية التي اعطت على نفسها بها عهداً انما هي حماية الضعفاء من الاقوياء : اي مقاومة ناموس تنازع البقاء

« فعلى الحكومة اذاً لا ان تُنزل الاقوياء من طبقتهم لمساواتهم بالضعفاء بل ان ترفع الضعفاء من طبقاتهم لمساواتهم بالاقوياء . وهذا امر ممكن وذلك بالتعليم والتدريب والمساعدة . ومتى حصل هذا وصار جميع افراد الشعب اقوياء بتربيتهم العمومية سقطت حجة الذين يقولون ان البشر نبيه وخامل . وانه لا بدّ من تسلط الاول على الثاني كما قال الخطيب

هذا ما نسميه اصلاح ظلم الطبيعة . على اننا لو كنا حيوانات ضارية نعيش في واسع البر لكان من المحتمل ان نترك الطبيعة تفعل فعلها الذي يحلو لها

« ولكنني اؤكد لكم اننا لو كنا نعيش في الطبيعة كالحيوانات لما عاش بيننا كثيرون مثل نيوتن . فان هذا النابغة كان ضعيفاً في صباه الى درجة الموت . ولم يعش الا بعناية امه وعناية الله . ولو عاش بين الاسبرطيين مثلاً لكانوا قتلوه لانه ضعيف لا يجدي نفعاً فذهب ضحية ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء . وانتم تعلمون كيف قلب هذا الرجل العلم باكتشافاته العظيمة . وذلك يثبتُ انَّ ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء قد يكون احياناً ضد ناموس العمران (١)

« بقي بعد هذا ان نسأل : ماذا يصنع الشعب بعد ان يقوى ويتعلم ويتدرب ؟ هل

---

(١) لان الفضل في الطبيعة والقوة هي القوة البدنية التي عليها مدار ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل . واما في الاجتماع فقد تغيرت هذه القوة وصارت عقلية .

يعود للاستخدام كالرقيق ام يذهب ويستخدم هو نفسه بعضاً من اخوانه بني الانسان ويكون سيداً عليهم فيعمل بذلك عملاً كان هو نفسه يشكو منه — لا هذا ولا ذاك بل على الحكومة حينئذ ان تسلمه معامله ومصانعه ومتاجره ومزارعه · اي ان تشغله فيها تحت ادارتها هي ومراقبتها · وتوزع ارباحها عليه · وفي شيخوخته تعين له راتباً صغيراً يكفيه حتى لا يموت جوعاً : هذه كل مطاليبهم ايها السادة · فاذا عرضنا هذه المطاليب على بدوي ساذج لم يدخل المدن قط لاستغرب ان يوجد بين البشر قوم ينكرونها

« يقولون ان حق الملكية لا يُنقض · ولكن لماذا تنقضه الحكومة يوم تقرر نزع ملكية الاراضي والاملاك التي تحتاج اليها في مقابلة تعويض تعطيه لاصحابها · فالمعامل والمصانع والمتاجر والمزارع تُنزع ملكيتها ويُعطى اصحابها تعويضاً عنها

« يقولون انه اذا قُسمت الاموال والاملاك بين الناس على السواء فانها تعود تجتمع في ايدي المدبرين المقتصدين · نقول ليس احد يطلب قسمتها بالسواء فان هذا وهم وافتراء علينا وعلى العمال · وانما نطلب وقف المصانع والمزارع والمتاجر والمعامل للامة وقفاً لا يجوز بيعه وشراءه لانه للجمهور · وليس يجوز للجمهور ان يتمتع بسوى ريعه · وتكون الحكومة الوكيلة العظمى لهذا الوقف العظيم

« يقولون ان ذلك يضعف الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الاقوياء ضعفاء · نقول بل بالعكس انه يقوّي الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الضعفاء اقوياء

« يقولون ان ذلك يهدم التجارة والزراعة والصناعة من قلة الاقدام حينئذٍ عليها وتقييد صاحب العمل بآراء عماله · نقول اذاً كيف تنجح المشروعات الكبرى التي تديرها الشركات الكبرى · والحكومة أليست حاضرة للمساعدة · وهل نجحت الاعمال التجارية والصناعية والزراعية من غير تنشيط الحكومات ومساعداتها

« يقولون ان المتاجر تكسد لانها لا تعود قادرة على مزاحمة البضائع الاجنبية الرخيصة · نقول ان بضائعنا ترخص اثمانها حينئذٍ بدل ان تغلو لان الحكومة لا تطلب ربحاً منها تخزنه في صناديقها

« يقولون ان ذلك يضر بالحالة الحاضرة · فنقول ولكن هل تريدون ان نخون المستقبل ونؤخره حفظاً للحالة الحاضرة

« المستقبل · لقد عدنا للمستقبل · اننا نريد في المستقبل حياة افضل من حياتنا الآن · فانّ اعصاب الانسانية الآن كلها متوترة متهيجة · كل واحد لا يأتمن اخاه على

اقل الاشياء . كل واحد يحذر اخاه حذره من الذئاب الضارية . وما ذلك الاً لذلك المبداء الملعون الذي انبث في نفوسنا وهو مبداء تنازع البقـاء مبداء طلب الفائدة للذات بكل الطرق وان اضرَّ ذلك بالغير ضررًا عظيمًا . فنحن نريد بدل هذه الانسانية المضطربة المتشنجة انسانية هادئة مطمئنة متمتعة بامن وسلام بنعم الارض والسماء . وهذا لا يتمُّ مع النظام الحاضر والحالة الحاضرة لان الانسان لا تهدأُ نفسه ويسكن جاشه وتتلطف اخلاقه الا اذا صار امينًا على رزقه . ولا امن على الرزق ما دام الاقوياء متروكين على الضعفاء يمتصون دماءهم والضعفاء يزمجرون ويزبدون في سرّهم حسدًا وطلبًا للنقمة

« ولقد سمعت الخطيب الثاني يتهكم على العلم واهله ويقول ان اهل المال هم المحسنون الى الهيئة الاجتماعية بقناطيرهم الذهبية . فهذه دعوى غريبة لانني كنت اظن ان المال يسمم الآن هيئتنا الاجتماعية تسميمًا

« وليس سبب هذا السم المال نفسه ولكن الطريقة التي يُستعمل بها . فان طلاب المال لا غرض لهم في مصانعهم ومتاجرهم ومزارعهم سوى « ربح اكثر ما يمكن ربحه بكل الطرق » ولذلك نظلمهم اذا اردنا وضع قواعد ادبية ورمنا منهم حفظها في معاملاتهم . ان طلب المال والادب لا يجتمعان . ولذلك قيل « لا يُعبد ربان : الله والمال » ـ وهذا بخلاف ما لو كانت تلك المصانع والمزارع والمتاجر في ايدي الحكومة . فانه لما كان اساس كل حكومة عادلة الفضيلة المطلقة وكان غرضها حماية الضعفاء لا جمع المال فانها تنبو بالطبع عن الروح التجاري الافرادي الذي يسمم الهيئة الاجتماعية اليوم ويبثُّ فيها روح الفساد بدل روح الاصلاح والاحسان الذي اشار الخطيب اليه

« وروح الفساد هذا ظاهر في كل مكان . فان النفوس اليوم لم تعد تعرف نظامًا غير الذهب ولا فضلاً لغير الذهب ولا قيمة لغير الذهب . انظروا الى اعمالهم لا تجدوا لها غرضًا غير جمع الذهب والظماء الى الذهب . ولذلك صار كل شيء يُشرى ويباع عندهم بالذهب . فالاستقامة والامانة : كلام فارغ لان المقصود جمع الذهب . الآداب والفضائل : حلية العاجزين لان الحلية الحقيقية حلية الذهب . الضمير والذمة والشرف والمبادىء الازلية والرفق بالناس ومحبة القريب وصنع الخير والله : دعنا منها كلها فما هي الا حبائل نصبها الساسة والشارعون لاخضاع الشعوب والحقيقة ان كل شيء دون الذهب . ـ فما هذه الحالة الهائلة التي ترتعد منها فرائص الانسانية ايها السادة . هذه هي جهنم الحقيقية . هذه هي الهاوية السافلة التي يلقون فيها كل ما هو محبوب وكل ما هو مقدس وكل ما هو جميل وكل

ما هو عزيز عندنا . وهم يسمون هذا الامر سعة وثروة وخيرات ونعماً . واما انا فاسميها : فظاعة وجنوناً وهوساً و شراهة ونهماً وقبضاً على الهواء

« وقد قلت « قبضاً على الهواء » لان طالب الذهب يرى وهو على فراش الموت في يومه الاخير في ساعته الاخيرة انه سعى وتعب وجدّ عبثاً . اذ ماذا عمل ؟ واي فائدة له مما جناه؟ هل كان يأكل كل يوم الف كبش كما تهكم عليه اليازجي ام كان يكتفي بكسرة من الخبز وقطعة من اللحم كما كان يأكل جاره الفقير . وما يعمل اولاده بتلك القناطير المقنطرة التي تركها لهم . هل ترى جمعها قطعة قطعة من كل طريق و بكل الوسائط ومن كل الجيوب لكي يرى عدم فائدتها في ساعته الاخيرة وعجزه عن اخذ شيء منها معه ـ وحينئذ يتمثل له الاشخاص الذين امتصها منهم في حياته والدموع التي جرت من بعضهم والغضب الذي ثار في بعضهم والعرق الذي انصب من بعضهم في سبيل خدمته فيرى ان حياته كانت حملاً ثقيلاً على البشر . وفي هذه اللحظة الاخيرة يفهم معنى قول المالي المشهور كارنجي غريبة الغرب « سيأتي يوم يكون فيه كل غني يموت دون ان يفرّق امواله موصوماً عند الناس بوصمة العار » فيغطي حينئذ عينيه بيديه ويقول : لم يبقَ لي غير رحمة الله . ولكن الله لا يرحمه الا اذا كان يهب في تلك اللحظة نصف ماله للفقراء والمساكين : اي ان يعيد نصف ماله للامة التي اخذه منها . ـ وعلى خلاف ذلك من لا يجعل غرضه في حياته مقصوراً على جمع المال بل يطلب غرضاً اشرف موافقاً لمصلحته ومصلحة الهيئة التي يعيش فيها معاً

« وهذا الغرض الاشرف هو حفظ النظام في الارض والمساعدة على حفظه . فان البشر لا يمكن ان يعيشوا براحة في الارض من غير شرائع تحكمهم . وهذه الشرائع منها سياسي وديني واجتماعي وادبي . ومجموعها نسميه « النظام » اي الشريعة المطلقة التي تدخل فيها كل الشرائع . وحفظ النظام اول ما يجب على الانسان الذي يستحق ان يُسمى انساناً . وكل من يخرق هذا النظام يخرج عن حدود الانسانية . ولكن كيف يُخرق هذا النظام ؟ يُخرق بطرق عديدة . فالصانع الذي يغش صناعته والزارع الذي يغش زراعته والتاجر الذي يغش تجارته انما يخرقون ذلك النظام لانهم يخدعون اخوانهم بني البشر ليربحوا منهم اكثر مما اعتادوا ربحه . وصاحب العمل الذي يستخدم العمال في عمله باجرة قليلة بالنسبة الى ربحه وصاحب الاموال الذي يضايق مديونيه والسيّد الذي يسيء في معاملة مسوده لانه لا يعظمه بقدر ما يريد ان يُعظَّم ـ كل هؤلاء ايضاً يخرقون حرمة النظام الاجتماعي لان الرفق والرأفة اساس هذا النظام . فانتم ترون ان « حفظ النظام » و « جمع

المال » نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يأتلفان · فاين ما قاله الخطيب من ان الهيئة الاجتماعية لا تستغني عن اهل المال

« كلا ثم كلا · ان الهيئة الاجتماعية تحتاج الى المال لا الى اهل المال · والمال متى عاد الى صندوقه الحقيقي انحصر في يد الحكومة · اما الذين لا يمكن للهيئة الاجتماعية ان تستغني عنهم فهم اهل العلم · هم حفظة هذا النظام الذين نشير اليه · هم الذين يطرحون انفسهم بين الانسانية المقتتلة على حطام الدنيا وخزعبلاتها ليسمعوها كلمة المحبة والرفق والالفة ويذكروها بزوال هذه الاباطيل · هم الذين يولدون فقراء ويعيشون فقراء مفتخرين بفقرهم لان قناطير الاموال التي تُجمع في الصناديق انما تُجمع من دماء بني جنسهم اما من التسفل لاقويائهم او الضغط على ضعفائهم · هم الذين تراهم مع فقرهم هذا مكتفين قنوعين يستنشقون براحة وهناء هواء جوّهم النقي من جراثيم الرذائل والفظائع التي تسمم جوّ غيرهم · هم الذين يطبقون اعمالهم على اقوالهم فلا يظلمون ولا يخدعون ولا يتسفلون · فكأنهم اعمدة شامخة نصبها الله بيده الازلية في هذه الارض ونقش عليها فضائل اديانه بكتابات جديدة وطرق جديدة بعد ان فسدت الاعمدة الاولى التي نقشها عليها اولاً بفساد قلوب الرجال الذين كانوا يحرسونها

« هذا ما يُقال في العلم حافظ « النظام المطلق » في الارض · بقطع النظر عما كان له من الفوائد العملية كالاكتشافات والاختراعات التي احيت التجارة والصناعة والزراعة ولولاه لما كانت الآن على جزء من تقدمها الحاضر

« فمن الغريب ان يهاجمنا اهل المال وينكروا فضل العلم ونعمته بعد كل ما صنعه العلم للهيئة الاجتماعية

« اما حكمكم في مشاكلنا هذه ايها السادة فليكن كما تشاؤن ولكن علينا ان نذكركم بان الدنيا كلها تنتظر حكمكم بشوق شديد لترى الى اي درجة وصل العدل في الكرة الارضية »

ولما جلس الخطيب تزحزح الشيخ الرئيس ونظر في ساعته ثم قال بصوت جهوري

ـ انني مسرور لاننا سمعنا اقوال الخطباء الثلاثة بكل هدوء وسكينة · فهل ترون ان نتباحث الآن فيها

فنهض واحد من فريق رجال الدين وقال

ـ بل ارجو ان نترك البحث في كل المشاكل الى ما بعد سماع اقوال باقي الخطباء

فهزّ بعض من فريق العلم رؤوسهم لانهم علموا ان هذه حيلة عليهم وقال الشيخ الرئيس اذاً نعقد غداً الجلسة الثانية

الفصل السابع

﴿ الجلسة الثانية ﴾

العلم ومشاكله

وفي الليلة التالية ازدحمت الحديقة بالاقدام ازدحاماً شديداً · ذلك ان الخطب التي أُلقيت امس حمّست السكان ولم يكن في المدن الثلاث في ذلك النهار حديث في غيرها · وقد حدثت بعد العصر عدة فتن في مدينة المال بين العمال واصحاب الاعمال فاضطرت الجنود الى المداخلة اعادة للنظام · ولذلك كان عدد الجند حول الحديقة في هذه الليلة اكثر منه في العادة

ولما انتظم عقد الاجتماع وجلس الشيخ الرئيس في كرسيه وعلى وجهه لوائح القلق واشتغال البال انصت الجميع · فقال الشيخ الرئيس

ـ كملوا يا اولادي مباحثتكم في مصالحكم واذكروا وصيتي لكم بالهدوء والسكينة

وكانت هذه الجلسة مخصوصة بالعلم ورجاله · فنهض زعيم كبير من صفوف رجال الدين وابتدأ يخطب في الجمع بصوت جهوري · فقال

دعوى اهل الدين

ايها السادة

ـ لما كنت اصغي الى الخطب الثلاث التي القيت امس كنتُ اظنني في حلم · لان الخطباء الثلاثة بعد كل ما ذكروه في اثناء كلامهم لم يدخلوا في اساس الموضوع · فكل كلامهم كان خارجاً عن دائرة المسألة

ان المسألة الكبرى التي هي مسألة المسائل في الهيئة الاجتماعية هي « كبح هوى الانسان » اي وضع شكيمة تضبط شهواته واهواءه لان الاجتماع مستحيل من غير هذه الشكيمة · وهذا هو السبب في نزول الاديان وقيام المهذّبين والمرشدين ليعلّموا البشر انهم لا يكونون بشراً الا اذا كسروا حدتهم وقللوا طمعهم وسكّنوا اهواءهم وسامحوا المسيئين اليهم · الى غير ذلك · ولكن تعالوا وانظروا ماذا يصنع اهل الكفر والضلال

فصاح صائح من بين صفوف اهل العلم

ــ لم يصنعوا شيئاً سوى انهم نقلوا الجنة من السماء الى الارض

فاتمّ الخطيب كلامه دون ان ينتبه اليه قائلاً

ــ انهم قاموا يعلّمون الناس الانفكاك من هذه القيود الادبية الجميلة التي حفظت الهيئة الاجتماعية الى اليوم . فانهم يحرّضون الضعفاء على ان يتمتعوا بالحياة كالاقوياء . ويعلمونهم ان ذلك من حقهم لانهم الاكثرية . وان اللذات الموعودين بها فوق تعويضاً لهم عما فاتهم منها هنا انما هي لذات وهمية . وبهذا التعليم ايها السادة يهدمون نظام الاجتماع الذي يزعمون انهم حافظوه ويثيرون كل ما في نفس البشر من الاحقاد والضغائن والشهوات الحيوانية

فصاح حينئذ صائح من صفوف العمال

ــ كم اعطاك اهل المال لتقوم مدافعاً عنهم

وصاح صائح آخر منهم

ــ لا عتب علينا نحن العوام اذا كنا نطلب التمتع بخيرات الارض ما دام رجال الدين قد سبقونا الى ذلك منذ ازمان

فاتمّ الخطيب كلامه قائلاً

ــ فاهل الضلال هم السبب في كل هذه الفتن وهذه الاضطرابات . ولست اسميهم « اهل العلم » لان العلم الحقيقي براءٌ منهم . وها في صفوفنا نحن كثيرون من اهل العلم الحقيقي ينكرون تلك البدع المهلكة

« ايها السادة . ان بابل ونينوى وسدوم وعمورة انما خربت وصُب عليها غضب الله لانها اطلقت اهواءها وشهواتها من كل قيد . فهل ترومون ان يصيبنا ما اصابها

« هؤلاء المصلحون اصلحهم الله يريدون الاشتراكية . اي يريدون هيئة اجتماعية فيها الجميع اخوة وتكون ادارتها تهتم بالجميع . فعافاكم الله ايها المقلّدون الذين يُسمون انفسهم مخترعين . ألا ترون ان هذه الهيئة هي هيئتنا نفسها . فتعالوا اذاً الينا . ولكنكم لا تأتون لان اشتراكيتنا نحن مبنية على المحبة والرفق لا على العنف والغصب . نحن نعتبر الكبير فينا صغيراً والصغير فينا . كبيراً واما انتم فتريدون ان تكونوا كلكم كبراء . نحن نجامل الجميع ونساوي بين الجميع لنرضي الجميع واما انتم فتريدون جعل الفقراء اغنياء والاغنياء فقراء . نحن نطلب خيرات الدنيا لنفرقها على غيرنا واما انتم فتطلبونها لتدفنوها في بطونكم

« فالفرق بيننا وبينكم في المسألة الاقتصادية كالفرق بين الخير والشرّ والبياض والسواد . انتم تحرّضون وتهيجون ونحن نسكّن ونهمّد . والله من اعالي السماء يعلم اينا انفع للهيئة الاجتماعية

فصاح حينئذٍ صائح من بين العمال

ـ هذا افتخار من يكبح جماح البقرة و يمسكها لمن يريد حلبها

وصاح صائح من فريق اهل العلم

ـ نرا كم صرتم تفتخرون بفوائد مبادئكم بدل الافتخار بصحتها

فاجاب الخطيب ـ ان المفيد يكون صحيحاً دائماً

فصاح واحد آخر من فريق العلم ـ ان دين بوذه و كونفوشيوش و برهما صحيح ايضاً لانه مفيد

فاستشاط الخطيب غضباً حينئذ وصاح مخاطباً اهل العلم

ـ كل المذاهب خير من مذهبكم . ونحن سواء كنا مسيحيين او مسلمين او اسرائيليين او بوذيين او براهمة او كونفوشيوشيين كانا على اتفاق ضد مبادئكم المهلكة

فصاح صائح آخر من فريق العلم

ـ هذا افتراء فظيع علينا فاننا نؤمن بالله مثلكم

فاشتد غضب الخطيب فقال

ـ نعم تؤمنون بالله لتتخذوا هذا الايمان ستارًا تنشرون وراءه مبادءكم . وهل تحسبوننا بلهاً الى هذا الحد حتى نكتفي منكم بالايمان بالله . فاما ان تؤمنوا كما نؤمن نحن اوتكونوا جاحدين . هل تؤمنون برسالات الرسل والانبياء والاقانيم الثلاثة وعلم الله بكل شيء ومقدرته على كل شيء والبعث والحساب في عالم آخر فيه جنة وفيه نار . كلا انكم لا تؤمنون بذلك . ومع ذلك تنادون « ان علمكم موافق للدين » . وعلمكم لا يكون موافقاً للدين عندنا الا متى اضاف الى ايمانه بالله الايمان بهذه الامور لانها هي الدين . فتدجيلكم اجيزوه بعد الآن على السذج لا علينا

فقطع كلامه احد رجال العلم قائلاً

ـ هل تعلمون سياستكم هذه الى اي هاوية تجركم

فاجاب الخطيب

ـ كل الهاويات عندنا مقبولة بالنسبة الى هاويتكم . انكم تهدمون ما بنيناه في عدة قرون . انكم تضعضعون الهيئة الاجتماعية من اساسها . فعلينا محاربتكم بكل سلاح

« ولكن خبرونا ماذا تريدون ان تضعوا بدل الشيء الذي تطلبون هدمه . لاريب انكم تعلمون المبداء القائل « لا يمكن في الاجتماع هدم شيء الا متى امكن وضع شيء آخر مكانه يقوم مقامه » فماذا تضعون موضع الدين . أتضعون العلم ؟ لله ما

لله ما اسخف احلامكم. اذهبوا وقولوا للناس وخصوصاً للشعب المسكين : يجب عليكم ان تحبوا قريبكم من اجل العلم . وتصنعوا الخير من اجل العلم وتعفّوا عن مال غيركم اكراماً للعلم . ولا تصنعوا شرّاً في السر ولا في العلانية اكراماً للعلم — وحينئذ تسمعون الجواب . ولكن ويل للهيئة الاجتماعية في ذلك اليوم الذي تقطع بيدها الاثيمة قيود خوف الله ورهبة الدين لتجرب هذه التجربة الهائلة

فقطع هنا كلامه خطيب العلم السابق قائلاً

— هل تسمح لي ان اجيبك الآن عن هذا الكلام

فقال الخطيب

ـ اذا كان جوابك وجيزاً فلا بأس

فقال المعترض

— معاذ الله ان نروم هدم الدين كما تفترون علينا وانما نروم هدم الاوهام والخزعبلات في الدين . فلماذا تجعلون هذه قسماً منه . واول هذه الخزعبلات قولكم ان الانسان لا يمكن ان يعبد الله ولا ان يفهم الكتب الدينية الا بواسطة كاهن او شيخ . وبذلك تضعون انفسكم بين الله وبين عباده رفعاً لشأنكم وطلباً للفائدة لكم . وهذا ما جعل بعض رجال الدين في بعض خطبه العمومية يفضّل الذبيحة اليومية في الكنيسة على كل ما في الديانة المسيحية من الفضائل وروح الكمال . فنحن اذا حاربناكم فانما نحارب هذه السيطرة على عقول الناس . اي نحارب اتخاذ المبدأ سبيلاً للمصلحة

« اما ماذا نضع موضع الدين فهذه مسألة يجيبكم عنها علماء الفلسفة الوضعية او الحسية . فانهم يقولون ان للبشر ثلاثة اطوار : طور الطفولية وهو الاعتقاد بان العالم محكوم بالارواح والآلهة . وطور الشباب وهو البحث في ما وراء الطبيعة . وطور الرجولية وهو طلب الهيئة الاجتماعية «نفع الناس» بناء على «الواجب» ومحبة الناس والعقل والمصلحة المتبادلة . وهم يقولون ان البشر متى وصلوا الى هذا الطور صاروا يعملون ما يجب عليهم عمله من غير ارهاب ولا تشويق بل بسائق فطرتهم ومصالحهم المتبادلة المحصورة في هذه العبارة « يجب ان لا اصنع بالناس الا ما اريد ان يصنع الناس بي »

فصاح الخطيب

— اذاً تكون قصارى فلسفتهم ايها السادة ان يأكل الناس ويشربوا وينامو ويعيشوا معيشة الخنازير . هذه هي « المعيشة الوضعية » وكثيرون من البشر هذا شأنهم

اليوم · وهم يضيفون الى ذلك التمتع بكل شهواتهم واهوائهم الحيوانية · فهل يكون في المستقبل ايها السادة هؤلاء الحيوانيون العابثون بكل شيء مصيبين والذين صرفوا حياتهم بالعفاف والزهد والفضيلة والخير والصلاح مخطئين · هل المستقبل سيذبح الفضيلة هذه الذبحة الهائلة بان يثبت ان اولئك كانوا اقرب الى الحقيقة من هؤلاء · اذًا ما افظع الحاضر وما اقبح المستقبل · و ياهاويات الفناء · يا جحيم العدم · ابتلعينا منذ الآن واريحينا من حاضر فظيع ومستقبل قبيح

« ولكن لا لا · ان الله موجود ايها السادة « وكل ما في الطبيعة يدل عليه ويشير اليه · ولا ينكره الا الاشرار الذين يخافون عدله» · ونحن لا نعلم هل يوجد في العالم بشر تكفيهم تلك المعيشة الخنزيرية المجرّدة عن كل عاطفة انسانية كريمة وكل جنوح الى ما وراء الطبيعة ولكننا على ثقة من انَّ في العالم قوماً لا تكفيهم هذه المعيشة الحيوانية · بل ان نفوسهم الشريفة وفطرتهم السامية تجنح دائماً الى خالق الطبيعة وواهبها قواها · الى الآخرة التي هي وطننا الحقيقي · الى الحياة الروحية التي هي الحياة الحقيقية · ـ و بناء على ذلك يكون علمكم وفلسفتكم مما يُرضي قسماً من الانسانية فقط · والقسم الثاني لا يستغني عن علمنا وفلسفتنا اي عن مبادئنا الدينية · ولذلك يكون الدين من حاجات قسم كبير من الناس لاختلاف قلوب الناس باختلاف فطراتها ولان اصوله مغروسة في النفوس لا في الكتب والاوراق

فصاح به المعترض

— ولكن هذا الفريق من الناس ينقرض متى دخلت الانسانية في الطور الثالث من اطوار الفلسفة الوضعية التي تقدم ذكرها

فصاح الخطيب ضاحكاً ومتهكماً

— انتظروا فاننا معكم منتظرون · ولكن على افتراض ان هذا القول صحيح هل يجوز جرح عواطف الناس بمهاجمة معتقداتها قبل حصول هذا التغيير ودخول الانسانية في طور التحوّل عما بين يديها

فاجاب المعترض

— نحن نجاهد كالرسل والانبياء · ولولا هذه المجاهدة لما تقدمت المبادىء · وهل تظنون ان المسيحيين والمسلمين لو انتظروا حصول التغيير في الارض من مجرَّد سير المبادىء كانوا قد وصلوا الى ما وصلوا اليه

فصاح الخطيب وقد فرغ صبره

— بئس هذا الجهاد الذي تقومون به . فانكم تهدمون به كل شيء محبوب الينا . واي شيء سلم من هدمكم . لقد هدمتم الدين وهدمتم الوطن وهدمتم الجيش وهدمتم العائلة وهدمتم العادات الجميلة المقدسة

فضحك هنا كثيرون من فريق العلم وقال احدهم

— انك تتسلح بالمبادىء الوطنية و بالدفاع عن الجيش تقوية لحجتك

فقال الخطيب

— وهل تنكرون انكم افسدتم الفكرة الوطنية وشوّهتم مبادئها المقدسة . اما نسمعكم دائماً تعلّمون الناس ان البشر اخوان وان الحدود يجب ان تُزال من بين بني الانسان . فما معنى هذا عندكم . اليس معناه تسليم الوطن للاجانب . ثم اما أنتم الذين تدعون الى نزع السلاح وقصدكم من ذلك اضعاف جيشنا لكي يصبح غير قادر على مقاومتكم يوم تريدون انفاذ اغراضكم . اما انتم الذين تحرّضون الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية لانها عارٌ في مذهبكم لقيامها على حمل السلاح وسفك الدماء وتنشرون المنشورات بين صغارهم ليعصوا قوادهم ولا يكبحوا جماح العمال في اوقات الاعتصاب . اما انتم الذين ادخلتم الطلاق في العائلة فضعضعتم به اساسها واساس الهيئة الاجتماعية ثم تريدون الآن توسيع نطاقه باعطاء كل واحد من الزوجين حق الطلاق حينما يطلب ذلك وان لم يرضَ به الثاني . اما انتم الذين تدعون الى اباحة الزواج من غير زواج والعياذ بالله اي من غير عقد رسمي سوى رضى الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ومتى شاءا يفترقان كما اجتمعا

فصاح حينئذٍ كبير من فريق رجال العلم

— يظهر ان هذا الكذب لا حدّ له عندكم فانكم تنسبون الينا كل اعمال الاشتراكيين مع علمكم اننا براء منها

فقال الخطيب

— ولكن أليست هذه كلها نتائج مدنيتكم هذه . انما اردنا ان نظهر للامة الهاوية التي تجرُّون البلاد اليها اذا بقيت لكم الحرية . فانكم تعطلون عقائد الامة بجرّها الى الالحاد . وتثيرون الحرب الاهلية بتحريضكم الصغار على الكبار والضعفاء على الاقوياء . وتفرّقون الجامعة الوطنية والدينية بدعوتكم الى الاخاء والتعاون الانساني . وتُضعفون قوة البلاد بمقاومة جيشها واهانته في كل يوم . وتهدمون الهيئة الاجتماعية والفضائل المدنية بمحاربتكم العائلة ووضعكم الفاحشة موضع الزواج المقدس اللطيف

« هذه ثمار اعمالهم ايها السادة . ومن ثمارهم تعرفونهم . فلا يفتخروا بعد الآن بانهم حفظة « النظام المطلق » مع انهم مضعضعوه . ان النظام يقتضي قبل كل شيء « انكار الذات » اي ان يتنازل الانسان عن شيء من حقوقه في سبيل المصلحة العمومية اكراماً للذين يخدمون و ينفعون . فالرؤساء والحكام والاغنياء والكبراء يتفانون في الخدمة العمومية ونفع الامة ولذلك يجب على افراد الامة ان ينكروا ذواتهم قليلاً و يتركوا لهم شيئاً من حقوقهم في مقابلة متاعبهم ومسئوليتهم . ولذلك تكون المساواة المطلوبة بين هولاء وافراد الامة عبارة عن وهم وخيال . اما المساواة الممكنة الحقيقية ايها السادة فهي تكون في السماء لدى الله لا في الارض بين الناس »

وهنا فرغ الخطيب من خطابه وجلس وهو يمسح العرق عن جبينه . ويظهر ان الغيظ الذي كان في اثناء كلامه يجيش في صدور العمال والغلاة من انصارهم قد طفح حين سكوت الخطيب فهاجوا وماجوا وصرخوا صرخة واحدة قائلين « فليسقط الظالمون » وصاح احدهم « قلتَ ان المساواة وهم وخيال فالوهم معتقدك والخيال في دماغك اما المساواة فسنحققها او نموت » وصاح آخر « ان قولك وهم وخيال ينقض كل الاديان ولكن لا يهمكم دينكم ما دامت مصلحتكم مصونة » — فردَّ عليهم حينئذ فريق من رجال المال ورجال الدين وعلت الضوضاء واحتدم الجدال وتماسك فريق منهم بعضهم ببعض وتضاربوا فعمت الفتنة الحديقة كلها واضطرت الجنود الى المداخلة حفظاً للامن . ولكن الجنود لم تتمكن من ذلك الا بشق النفس لعظم الاضطراب . ثم انجلت الفتنة عن جريحين حُملا الى المستشفى بحالة النزع . واخرجت الجنود الناس من الحديقة وفرقتهم في المدن الثلاث لان التحمس كان شديداً

الفصل الثامن

الجلسة الثالثة

الدين ومشاكله

وفي اليوم التالي انتبه السكان على اصوات جلبة العمال واجتماعهم في الشوارع والاسواق افواجاً افواجاً لاعتصابهم وتركهم العمل بتاتاً في ذلك اليوم . فتفاقم الخطب وازداد الاضطراب .

لكن لما بلغ العمال ان شيخ اهل العلم سيخطب في تلك الليلة رداً على خصومهم خمدت قليلاً نار حدتهم · ولما امسى المساء غصت الحديقة بالناس حتى لم يبقَ فيها مكان لموضع قدم · وكانت جميع الابصار حائمةً على صفوف اهل العلم لتشاهد شيخهم الكبير الذي كان لا يخرج من خلوته في مدينة العلم ولا يحضر المجتمعات العمومية ليبدي رأيه فيها الاّ في اشد الاوقات · وبينا هم يتطاولون نحو صفوف العلم انفرد من هذه الصفوف شيخ مهيب جليل كامل الشيب رأسه وهو يناهز السبعين · فجلس على كرسي منفرد كان موضوعاً على دكة وابتدأ خطبته والناس سكوت كأَن على رؤوسهم الطير · وكان حليم جالساً مع رفيقه في الزاوية التي تقدم ذكرها قريباً من شيخ العلماء والشيخ الرئيس وقد صار شديد الاهتمام بما عليه اهل هذه المدن من الاختلاف بعد ما سمعه في الليلتين السابقتين

اما شيخ العلماء فانه انشأَ يقول

خطبة شيخ العلماء

ايها الاخوان

ـ قرأْتُ اليوم في الجرائد خطبة اخينا المدافع عن الدين الحامل على العلم حملة منكرة فخيل لي وانا اقرأُها انني في مشهد صراع وان الخطيب مصارع يطلب اعدام خصمه لا اقناعه · فذكرت حينئذ مشهداً كهذا المشهد فيه فكاهة وعبرة معاً · فانني كنتُ اسمع مرة احد المتحمسين في الدين يدعو الى دينه · فكان يتكلم بصوت كالرعد القاصف ويخبط الهواء بيديه خبطاً متوالياً ويرفس الارض بقدميه رفساً شديداً وينادي ملء فيه : ان البشر لا يستغنون عن الدين · ان دينه خير الاديان كما ورد في كتابه · ثم اردف ذلك باقوال عن العلة والمعلول والفاعل والمفعول والواجب والممكن وغيرها · فلبثت في مكاني مبهوتاً وانا اقول : ان هذا الرجل يطلب ان يدلنا على طريق السماء ومع ذلك فانه يغطي وجهها بالغبار الذي تثيره حدته وبالسحب المتراكمة من اقواله الجافة الغامضة التي لا يفهم سامعوه لها معنى · والتفتُّ لارى حالة سامعيه فابصرتُ في زاوية امامي فتاةً جاثية على بلاط الارض ووجهها لاصق بالثرى وهي تصلي ولا تسمع شيئاً من كلام ذلك المتحمس · فثارت نفسي لهذا المشهد وقلت ان هذه الفتاة بلطفها وهدوئها وسكوتها تعرف طريق السماء وتؤَثر في الارشاد اليها اكثر من ذلك الواعظ البليغ الفصيح

« وان سأَلتم لماذا يكون تأْثير هذه الفتاة مع سكوتها اوقع في النفوس من تأْثير ذلك الواعظ المتحمس مع كثرة كلامه · فاجيب : ذلك لان هذه الفتاة تتمسك باسمى مبادىء

الدين ولا تلتفت الى ما بقي . واسمى مبادىء الدين التسليم والاستسلام الى الخالق وترك الدنيا لطلب ما وراءها لا الاستيلاء عليها وعلى عقول سكانها . باذا كبرت الاديان وشرفت وعظمت ؟ هل كان ذلك بالحروب والسيوف والمدافع ؟ كلاً وانما كان ذلك بدم الشهداء . اي بتسليم الانسان نفسه الى كبرياء المخلوق اعتماداً على عدل الخالق . وقد كان الخالق عادلاً فان ذلك المسيحي الذي كان يحتمل كل عذابات الموت بسكوت وفرح وشكر لله لانه اختاره ووجده اهلاً لان يتعذب من اجله . وذلك العربي الذي كان في واقعة اليرموك يهجم طالباً الموت منادياً " يا محمد امتك امتك " – قد اسسا في العالم اديانا عظمى وممالك كبرى . فكان انتصارهما عظيماً

« فدماء الشهداء ايها السادة وظلامات المظلومين هي التي نصرت الاديان وجعلت على هامة الدين اكليلاً من الجمال والسناء . فاحذروا ان ترفعوا هذا الاكليل عن هامة الدين . وانكم لترفعونه عنها وتضعونه على هامة قوم غيركم يوم يصير الشهداء في صفوف غير صفوفكم . فينتقل يومئذ صولجان العظمة والجمال منكم الى اولئك الشهداء الذين تعادونهم وتعذبونهم . اذاً لا تضطهدوا العلم والعلماء ولا تفتروا عليهم ولا تقاوموا العمال المساكين انتصاراً لاصحاب الاعمال فان هولاء العمال هم شهداء العصر الحاضر . وارجعوا الى الله في نفوسكم والى مبادئكم الاساسية التي منها درجتم فتنكشف لكم الحقيقة التي ننشدها معكم

« ولا تخشوا ان اقع في الخطاء الذي يقع فيه الناس عند طلبي التساهل والاعتدال منكم . فانني اعلم ان التساهل الديني ليس سوى فرع من التساهل العمومي الواجب بين جميع الناس في جميع المعاملات . اذ ماذا يفيدنا ان نطلب التساهل الديني فنحصل عليه ثم يبقى التعصب والتصلب في باقي الامور شديد البنيان راسخ الاركان . كلا . اننا نطلب التساهل المطلق . التساهل بكل فروعه . لان هذا التساهل العام هو وحده الضربة القاضية على الحيوانية والاثرة البشرية . فالذي يفتخر بانه متساهل في دينه لا يبغض غيره ولا يطلب ضرره بسبب مذهبه ثم تراه ظالماً في معاملاته الخصوصية فسمه متعصباً لا متساهلاً . وهكذا يكون صاحب العمل الذي يظلم عامله متعصباً . والعالم الذي يتصلب برأيه ولا يحتمل رأي غيره متعصباً . وهلم جراً . فاطمئنوا فانكم لستم وحدكم مصدر التعصب لان للتعصب انواعاً متعددة

« ولكني اعتقد انه يحسن بخدمة الله ان يكونوا البادئين باقامة مملكة التساهل في الارض وقتل روح التعصب على انواعه . فساعدونا ايها السادة على محاربة الاثرة البشرية وحب

الذات واعادة الامن والنظام الى نصابه في البلاد

« وتوصلاً لذلك علينا ان نبحث معكم في مسألتين (الاولى) علاقة العمال بارباب الاعمال (والثانية) علاقة العلم بالدين

« اما المسأله الاولى فقد قرأتُ اقوال الفريقين فيها . فرأيت الغلو في الجانبين . فلتكن وظيفتنا ايها السادة التوفيق بين المصلحتين لا نصرة احداهما على الاخرى

« وقد القيتُ الى حضرة الرئيس حين دخولي الى هذا المكان لائحة فيها عدة اقتراحات اظنها كافلة بهذا التوفيق

« اما المسألة الثانية فحلها اسهلُ من حل المسالة الاولى . فان العلم والدين اذا اختلفا في الطرق فانهما يتفقان في الغرض . ذلك لان غرض العلم والدين واحد وهو تحسين حالة الانسانية وترقية شؤون البشر . فما الموجب لجعل الواحد يناقض الثاني ويحاربه

« لا موجب لذلك سوى الاهواء والمصالح ايها السادة

« فلننبذ الاهواء والمصالح ولنتمسك بالمبادئ والمبادئ توفق بيننا وان اختلفنا في تفسير بعضها

« ولكن فاعلموا جيداً ايها السادة انه لا سبيل للوفاق بين الفريقين الا بتساهل الاثنين . فعلى الدين قبل كل شيء ان يتذكر ان العالمَ قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئًا من مبادئه وقواعده القديمة . وعلى العلم ايضًا ان يتذكر ان العالمَ قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئًا من مبادئه وقواعده الماضية . ـ ذلك ان العدو الحقيقي للدين والعلم ايها السادة انما هو الاثرة والشراهة والرغبة في الانفكاك من كل قيد . او كما يقول بعضهم " اعطاء الفرد مداه لاشباع كل قواه " . وما نتيجة هذا الامر الا استعلاء ذوي الفطر الدنيئة على ذوي الفطر السامية اي تغلب صغار النفوس على كبارها لان المواهب السامية والعواطف الكريمة المودعة في النفوس الكبيرة لا تعود نافعة لشيء ما دام الغرض من الحياة التمتع بما فيها من اللذات . وحينئذ يملك في الارض اصاغر سكان الارض اعني الشرهين والحمقى والوقحين والمعتدين والظالمين . وينزوي الاكابر الحقيقيون في زوايا الاهمال يندبون سقوط كل ما هو جميل وجليل . ولا عزاء لهم حتى ولا بحياة اخرى لان اولئك يضحكون منهم ويخبرونهم انها حياة وهمية

" نعم ايها السادة اننا مثلكم نبكي حزنًا واسفًا كما رأينا العلم يؤدي ببعضهم الى هذه النتائج المكروهة . ولكن رحماكم انصفوا ولا تلقوا التبعة في ذلك على العلم بل على الذين اخرجوه هذا المخرج . اي على النفوس التي استنتجت منه هذه النتيجة القبيحة . ان العلم

« كندى السماء . ولا يبقى الندى نقياً الاَّ اذا وُضع في اناء نقي » فالنفوس التي تُخرج العلم المقدَّس ذلك المخرج ليست بنفوس نقيَّة ولذلك يفسد العلم فيها . فقبل لومكم العلم لوموا الفطرة الطبيعية الدنيئة

«ثم هل تظنون ان العلم وحده يُنتج نتائج كهذه النتائج . كلا . فان تعليمكم الدين بالطريقة التي تعلمونه بها يُنتج مثلها ايضاً . فانكم تعلمون مبادىء وقواعد قديمة لم تعد العقول تقبلها في عصر كهذا العصر . وتطلبون تدبير الحاضر بالماضي . وتقولون ان الناس لا يمكنهم فهم الكتب الا بواسطتكم ولذلك تفسرونها وتضعون رايكم في هذا التفسير في موضع الحقيقة الثابتة التي لا يجوز مسّها بدل ان تتركوا الناس يفهمونها كما تسوقهم فطرتهم . فكم من نفس ساذجة كريمة تفهم مع سذاجتها تلك الكتب بالروح اكثر مما تفهمونها انتم . بل هي تصنع افضل من هذا فانها لا تفهمها فقط بل تعمل بها ايضاً وهذا فضل لها عظيم عليكم يا من تكتفون بالقول دون الفعل . فلماذا تجعلون انفسكم بين الله والناس في منزلة الوسيط والمدافع عن الدين اي عن الضمير البشري . من اقامكم وسطاء ومدافعين عن هذا الضمير . دعوا البشر يعيشون بملء حريتهم الروحية . فان كتبهم الدينية بين ايديهم . وضمائرهم اذا لم تُفسدوها بالجدل والمماحكة والاهواء فانها لا تقراء فيها الا الحقائق الازلية ومبادىء الاخاء البشري . ولا تقولوا نحن نرشدهم . فانكم بشر مثلهم . اي فيكم جميع اهواء البشر الصالحة والفاسدة . وهذا الارشاد لا يقبله البشر الا من الملائكة . ويوم تصيرون ملائكة مجردين من كل ضروب الشقاء البشري فاعلموا اننا نحن نسعى اليكم من غير ان تأتوا الينا ونطلب مساعدتكم . فدعونا ولا تقفوا بيننا و بين الله لتجبرونا على ان نفهم حياتنا وكتبنا والهنا ومصالحنا كما تريدون انتم : فان ذلك الضغط يجرنا الى الكفر بكل شيء

« ثم هل انتم تكتفون بذلك ؟ كلا : فانكم لا تنفكون عن محاربة بعضكم بعضاً . فهذا المذهب يكفّر ذاك وذاك هذا الى ما شاء الله . والاقبح من ذلك الحرب بين الاديان اي بين دين ودين لا بين مذهب ومذهب فقط . فان الذين مصلحتهم قائمة بتكدير الاخاء بين البشر واثارة التعصب في نفوس اهل السذاجة (ولولا ذلك لم يكن ثمت موجب لوجودهم ولا معنى له) لا ينفكون عن النداء ان دين اولئك باطل لاحتوائه على كذا وكذا فيجيبهم غلاة هذا الدين بل دينكم الباطل لاحتوائه على كذا وكذا . وفي اثناء ذلك يكون رجل ثالث واقفاً بعيداً عن الفريقين يسمعهما . فلما يرى الفريقين في سكرة من الجنون والحماقة الى هذا الحدّ . لما يرى انه لا غرض لهما من هذا الطعن غير التدجيل والشعوذة « لملء الخزانة واشباع

الخزانة ،، كما قال الزمخشري في بعضهم على افتراض ان هذا التدجيل يجوز على عقول اهل السذاجة ـ فانه حينئذ يهبُّ من مكمنه و يقول للفريقين : ان رمتما الحق فكلا كما في ضلال . وليس هنالك دين صحيح غير ديني . فيسالانه : وما هو دينك ؟ فيجيبهما ،، ديني ان افعل ما اريد كما أريد وقتما اريد . وما بقي فاوهام وخزعبلات حاكتها التصورات والخيالات وهدمتها كل الفلسفات ،، ـ وهكذا يكون تكفير الناس بعضهم بعضاً في عصر كهذا العصر مؤدياً على خط مستقيم الى هدم جميع الاديان على السواء . وليست التبعة في ذلك واقعة فقط على الغلاة من اهل العلم والفلسفة بل هي واقعة ايضاً على الغلاة من اهل الاديان في اي دين كان .

،، من اجل هذا طلبنا منكم التساهل والاعتدال وترك الصراع والنزاع . ان مبادئكم ـ كتلك الفتاة التي كانت جاثية بخشوع على البلاط تصلي في اثناء هياج الخطيب المصارع ـ لا تؤثر تأثيراً حقيقياً الا بالتسليم لرحمة الله والهدوء والاقناع . فكونوا هادئين ومخلصين مقنعين ومقتنعين . . . واعلموا ان الوفاق في بلادنا بين عناصرنا لا يمكن الا بمراعاة الوَسط الجديد الذي صرنا فيه لان الوَسطَ الماضي قد تغيرّ علمياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً . وهذا الوَسط لا بدّ ان تجتمع فيه جميع المذاهب والآراء والمبادىء والافكار . وبناء على ذلك لا سبيل لدوام الوفاق بين الجميع الا باطلاق الحرية المطلقة لجميع تلك المذاهب والآراء والمبادىء والافكار من اي نوع كانت . وهي من تلقاء نفسها متى تُركت لذاتها ولم يكن هنالك شهوة دنيئة تحرّكها تتفق وتتجه الى غرض واحد وهو الخير اي محاربة الرذيلة والشناعة والفظاعة والشرور في الارض من اي مصدر وردت وباي صورة كانت . و بعد حين لا يبقى منها الا الافضل ،، لان الافضل ينسخ بما هو افضل منه ،، كما قال ابن رشيد . ونحن نقبل هذا الافضل في اي جانب كان ومن اي مصدر كان .

ولا تقولوا ان اقوالي هذه تهدم آمالكم القديمة واحلامكم الجميلة . كلا . فانه لا حلم ولا أمل اجمل من رفع الجنس البشري وانهاض الشعوب . فاصرفوا هممكم لا الى تحريك التعصب في صدور الشعوب ولا الى طلب المستحيل بل الى خدمة الشعب خدمة حقيقية . ويتم ذلك بانارة عقول ابنائه ـ دون سيطرة عليها ـ ومساعدتهم في حياتهم وتعزيتهم في مصائبهم وذلك بالفعل لا بالقول فقط . فان القول لم يعد يؤثر شيئاً والقدوة خير المعلّمين . فاحملوا اذا لواء الفقر والرفق والمحبة والايثار والزهد وامشوا في طليعة جيش الشعب . فانكم لهذا وُجدتم . اما اذا رمتم حمل لواء البذخ في صفوف الحكام والكبراء واصحاب الاعمال

فيكون حينئذ مثلكم مثل ملوك يخلعون انفسهم ويخونون وظيفتهم و ينقضون مبادئهم ،،

ولما سكت الشيخ الخطيب علا من صفوف العمال شيء من الجلبة لعدم رضائهم عن هذه الخطبة كل الرضى . واما صفوف اهل المال واهل العلم فانهم صاروا اقل مقاومة مما كانوا. على ان الجميع باتوا ينتظرون الاقتراحات التي اشار اليها الخطيب في اثناء كلامه ليروا منها هل الاتفاق ممكن ام لا . فتناول الرئيس حينئذٍ ورقة ونشرها ثم قال يخاطب الجميع

ايها الابناء

ـ اليكم نص الاقتراحات التي يقترحها من احترامه واجب علينا جميعاً وذلك حسماً للنزاع والخلاف . وانني ارجو ان تكون وسيلة لاتفاقكم

(المادة الاولى) تزاد رواتب العمال والمستخدمين والموظفين ٥٠ في المائة . ولكن هذه آخر زيادة الا للذين تجب مكافأتهم في المستقبل حين الاقتضاء

(المادة الثانية) لا يمكن استخدام احد في اي عمل كان باقل من مائة فرنك في الشهر

(المادة الثالثة) ساعات العمل في اليوم ٨ فقط ٤ قبل الظهر و٤ بعده

(المادة الرابعة) اما الاولاد والنساء فانهم يعملون ٦ ساعات فقط لان كثرة العمل تهدم بنية الولد وتمنع النساء من افتقاد منازلهن

(المادة الخامسة) ينشأ صندوق يدعى « صندوق تقاعد العمال » وكلما شاخ عامل او عجز عن العمل لمرض فانه يتناول رزقه الضروري من هذا الصندوق طول عمره

(المادة السادسة) لا يجوز لاصحاب الاعمال ان يستغنوا عن احد من المستخدمين والعمال بحجة قلة العمل او ان يخفضوا اجور بعضهم لاي سبب كان . وعليهم ان يعتبروا جمعيات العملة نائبة عن هؤلاء في كل مخابراتهم

(المادة السابعة) توضع ضريبة على الايراد مقدارها ١٠ في المائة . فمن كان ايراده الف جنيه في العام يدفع ١٠٠ جنيه ومن كان ايراده ١٠ الاف جنيه يدفع ١٠٠٠ جنيه وهلم جرا . وذلك لتخفيف الرسوم والضرائب عن عنق الشعب . ولكن كل من كان ايراده اقل من ٢٠٠ جنيه فان ضريبته تكون ٢ في المائة فقط ومن كان ايراده اقل من ١٠٠ جنيه ١ في المائة . ومن كان ايراده ٥٠ جنيهاً فلا يدفع ضريبة ولا رسماً على الاطلاق

(المادة الثامنة) تتعهد الحكومة بأن تنشىء في البلاد من اموال الضريبة على الايراد التي تقدم ذكرها مزارع واسعة ومصانع عديدة تشغل بها كل من كان بلا عمل وبان تبني في كل مدينة من المدن الثلاث مستشفيين للمرضى وملجأين للشيوخ والعجزة

ودارين للايتام ودارًا للقطاء

(المادة التاسعة) تتعهد الحكومة ايضًا بان تنشىء للشعب مدارس مجانية يكون فيها التعليم اجباريًا لكل ابناء الامة . ولا يُدرس في هذه المدارس صغراها وكبراها من الاصول الدينية غير المبادىء العمومية التي تقبلها جميع المذاهب »

تلك كانت اقتراحات شيخ العلماء . وقد تغامز اهل المال كثيرًا بينما كان الرئيس يتلوها . ويظهر انه لم يسؤهم منها كثيرًا غير وضع الضريبة على الايراد لانها من امهات المسائل . اما العمال واهل العلم فصاروا يتناجون في السر ويتساءلون عن النتيجة . وفي هذا الحين قال الشيخ الرئيس مخاطبًا الجمهور

— لا ارى مانعًا من فض هذا الاجتماع الآن للبحث في هذه الاقتراحات غدًا لانها تقتضي الامعان والمشاورة

الفصل التاسع

وضع الجنون موضع العقل

وخرج الجمع من الحديقة وهم يتباحثون في هذه الاقتراحات . وكان حليم في جملتهم يباحث فيها رفيقه صادقًا ويعرب له عن سروره بنيل الشعب ما لم ينله سواه في باقي البلاد

وقد انقضت تلك الليلة بهدوء وسكينة . لكن لم يطلع الصباح حتى علت ضوضاء شديدة في المدينة . فان السكان انتبهوا على اصوات باعة الجرائد « خيانة خيانة » ففتحوا نوافذهم فوجدوا على الجدران في كل مكان اعلانات حمراء طويلة عنوانها باحرف غليظة

« الشعب المهذب يخون الشعب المسكين »

وهذا نص ذلك الاعلان الغريب

» ايها الاخوة العمال والمستخدمون

» لقد خانوكم وضحكوا عليكم

» فلا تصدقوهم

» ولا ترضوا باقتراحاتهم

» اذ لا غرض لهم من هذه الاقتراحات سوى ارجاعكم الى العبودية بالاجرة

» وانتم لا تطلبون الضريبة على الايراد ولا زيادة رواتبكم بل تطلبون مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم

» فاذا رفضوا هذا الطلب فان من حقوقكم الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر والمصانع لانها ملك لكم بحكم الطبع وهو خير من حكم الشرع

» فاستولوا عليها ولا تخافوا فان الجيش معكم

» ايها الاخوة

» هل تعرفون الذين خانوكم

» خانكم اولئك الذين يسمون انفسهم علماء معتدلين ومادروا ان الاعتدال لا يُحصل حقاً ضائعاً

» يقولون انهم اهل العلم وانهم خرجوا من احشاء الشعب ولذلك يرومون خدمته

» فاخبروهم انكم في غنى عن خدمتهم اذا كانت على هذا المثال

» وخير لنا عداوتهم

» انهم اقتدوا برؤساء الدين ومالوا لاصحاب الاموال ترويجاً لمصالحهم واشباعاً لبطونهم

» فقولوا لهم ان خيانتهم مزدوجة . اولاً لانهم يفتخرون بكونهم خرجوا من الشعب وثانياً لانهم تهذبوا ولم يمنعهم تهذيبهم من الخيانة

» فما احطّ ابن الشعب الذي حين ارتقائه لا يصرف همه الا لخيانة ابيه الشعب الفقير المسكين

» وانتم تفضلون ولا شك ارباب الاعمال المتغطرسين عليكم والمقاومين لكم على هؤلاء الاخوة الكاذبين الخائنين

» ايها الاخوة . نحن في غنى عن الجميع . واعتمادنا على انفسنا . فلنجتمع اليوم على ابواب المصانع والمزارع والمتاجر لنناقش اصحابها الحساب ونريهم قوتنا ونبلغهم نهائياً اننا نطلب الموت او مشاركتهم في ارباح اعمالهم

فلما نزل حليم من الفندق وقرأ هذا الاعلان في الشارع احس بقشعريرة تدبّ في جسده . وقال لرفيقه صادق : ان الموقف حرج والمصير مريع . ثم ذهب يجول في اسواق المدينة وشوارعها فوجد الاضطراب سائداً فيها . فان اصحاب المعامل والمزارع والمتاجر بعثوا حين وقوفهم على ذلك الاعلان يطلبون من الحكومة جنداً لحراسة مخازنهم ومعاملهم

لجاه الجند وطوقوها تطويقاً · وكان العمال والمستخدمون يتوافدون عليها مئات مئات من كل صوب وهم يصيحون « الاشتراك او الموت » · فلما قربوا منها وشاهدوا الجند حولها ازدادوا حدة وهياجاً وصاروا يصيحون « ايها الجنود نحن وانتم اخوان لاننا جميعاً من ابناء الشعب · فلا تسيئوا الينا » وكانت الجنود تسمعهم وتحول نظرها عنهم اتباعاً لنظامها

ولما حاول بعض العمال الدخول الى المعامل والمخازن حال الجنود بينهم و بين الدخول · فحدثت فتنة بين الفريقين · واتفق في هذا الحين ان اطلق واحد من العمال طلقاً من مسدس كان معه فاصاب كتف احد الجنود · فعمّ الاضطراب في تلك الناحية · وصدر الامر الى الجنود بان تجرد السلاح وتهجم لتفرّق العمّال من غير سفك دم · فهجمت الجنود طاعة لرؤسائها هجمة واحدة · غير ان صفاً واحداً منها كان مؤلفاً من ٥٠ جندياً التى سلاحه وانضمّ الى العملة · فصرخ العملة حينئذ صراخ الابتهاج والفرح · اما رؤساء الجند فعلا وجوههم الاصفرار من هذا التمرد وخافوا ان يحذو باقي الجند حذو هؤلاء المتمردين فيصير الامر للعمال ويُقضى على السلطة القديمة

لكن النظام العسكري كان متأصلاً في نفوس اولئك الجنود بتربية عدة سنين · ولذلك كان اكثرهم يسيرون كالعميان الى حيث يقودهم رؤساهم ولو كان ذلك ضد مصلحتهم · فتمكن الجند في ذلك النهار من تفريق العمّال واعادة النظام · ومع ذلك لم يرضَ الشيخ الرئيس حاكم المدن الثلاث ان يعقد جلسة في تلك الليلة في الحديقة لان الافكار كانت شديدة الحماسة

الفصل العاشر

تحالف الارض والسماء

على تاركي مبدإ الرفق والاخاء

ولما اقبل المساء ساد على المدينة سكون تام · فتنفس الحكام واصحاب الاعمال الصعداء واطمأنت نفوسهم قليلاً · وعاد لمدينة المال شيء من منظرها الاعتيادي بعد ذلك الاضطراب · فكان الناس في القهاوي والساحات العمومية جالسين يستنشقون نسيم المساء وهم يتباحثون بهدوء في حوادث النهار

ثم انتصف الليل فاطفأت الانوار في المدينة ونام جميع السكان . وساد سكوت تام حتى لم يعد يُسمع فيها سوى خرير النهر الجاري يسقي المدن الثلاث وصوت الخفاش في طيرانه في الظلام ووقع اقدام الجنود والحراس الذين كانوا يحرسون المدينة في الليل . وكان هؤلاء الحراس يسمعون حيناً بعد حين في ظلمة الليل صوت طائر بعيد فيقول بعضهم لرفاقه : انّ عظامي تنتفض كلما سمعتُ هذا الصوت في الليل في احوال كهذه الاحوال

ذلك ان ذلك الصوت كان صوت البوم المشهور بانه نذير الخراب

وبقيت المدينة نائمة بهدوء واطمئنان تحت جنح الدجى حتى الساعة الثالثة قبل الفجر . ففي هذه الساعة انتشرت في انحاء المدينة انوار مختلفة في جوانبها الاربعة . ثم علا الصياح والصراخ . ثم ارتفع الدخان فسدّ منافس الفضاء . وحينئذ حدث حادث ترتعد له الفرائص وترتجف القلوب . فان المدينة كلها هبت من الرقاد هبة مجنون . وصار الرجال يصرخون والنساء يولولن والاولاد يبكون وينتحبون . ذلك ان لسان النار لعبت في اكثر منازل المدينة خصوصاً في معاملها ومتاجرها ومنازل اصحاب الاعمال فيها . وهجم عليها جماعات كانهم ابالسة خرجوا من الجحيم فصاروا ينهبون ويسلبون . وكان حليم ورفيقه نائمين في فندق من اشهر فنادق المدينة . فلما انتبها وشاهدا النار تاكله اخذا الستائر والسجادات فعملا منها سلماً وتدليا عليها الى الارض . ولما باتا في الشوارع ابصرا فيها ما تنفطر له القلوب . ابصرا الانسان بحالته الحيوانية الحقيقية . فان جماعات السلابين النهابين كانوا يهجمون كوحوش ضارية ويكسرون المخازن والحوانيت ويحملون ما فيها . وكانوا يصعدون الى القصور الكبيرة والنار تضطرم فيها وبدل ان ينقذوا النساء والاولاد الذين كانوا يختنقون فيها من الدخان او يحترقون بلهيب النار كانوا يقتلون وينهبون كل ما وصلتْ اليه ايديهم . اما الجند والمطافئ فماذا تقدر ان تصنع في ثورة عمومية كهذه الثورة . فانه لم يكن في المدينة سوى ١٠ مطافئ ومع ذلك فقد كانت النار مضطرمة في ٥٠٠ منزل . وعن قريب ستتصل الى باقي المنازل فتاكلها كلها

وقد ظن حليم لاول وهلة ان هذا المصاب قد حلّ بمدينة المال وحدها ولكنه لم يلبث ان سمع الصراخ من جهتي مدينة العلم والدين ورأى اللهيب يرتفع من جوانبهما . فقال لرفيقه : هذه مؤامرة دبّرها الغلاة المتطرفون ولا شكّ انها نتيجة الاعلان الذي نُشر امس . فسأله رفيقه وما رأيك فيها . فاجاب حليم لو كنت املك الآن مسدساً ومائة خرطوشة لكنت اظهر لك رأيي فيها . فانني كنت اذهب واحرق ادمغة كل من اراه في طريقي

من هؤلاء الاباليسة الذين يقتلون وينهبون · ولا شكّ عندي ان عقلاء العمّال والاشتراكيين انفسهم يأنفون من انزال مبادئهم الى هذه الحمأة من اللصوصية والسفالة. فقال له رفيقه : ولكن الا تظن ان هذا التطرف نتيجة لازمة عن تطرف الفريق الثاني

فهمّ حليم ان يجيبه بانه لا يريد ان يعرف عذرًا للسلب والقتل والنهب مهما كان سببه · واذ ارتفع في المدينة صراخ اليأس والاضطراب تمازجه اطلقات البارود · فاصغى حليم وسأل ما هذا · ثم علم ان الجنود قد اخذوا كل ما في ثكناتهم من الرصاص وهجموا بقيادة رؤسائهم على جماعات الثائرين يفتكون بهم فتكاً ذريعاً · فدارت بين الفريقين رحى حرب حقيقية سالت بها الدماء وكان لتلك الدماء على اشعة النيران المتقدة حولها بين حشرجة القتلى وولولة النساء وصراخ الرجال منظر مريع

وكان حليم يُسرح نظره من بعيد في المشاهد الفظيعة التي كان يراها امامه وهو مشتغل البال بها لا يقدر على ردّ شيء منها ومضطرب الفكر لما عسى ان يكون قد جرى للفتاة العزيزة التي شاهدها في البستان عند « قرية الدخول » وكان يفكر بها · لكنه بعد برهة سمع هديرًا عظيماً قريباً فعلم انه صوت انهدام القصور المحترقة · ثم سمع اصوات القتل والبنادق اقرب منه مما كانت · فراى ان يخرج من المدينة فرارًا من البلاء ما دام لا يقدر ان يرده · فاخذ رفيقه وخرج معه من المدينة بنفس متألمة اشد ألم وقصدا اكمة قريبة مشرفة على المدن الثلاث وكانت مغروسة اشجارًا يتفياء السكان ظلها في حر الهجير · فشاهدا منها مشهدًا جميلاً مريعاً · فان السنة النار كانت تندلع في المدن الثلاث فتنير الافق بنور تخالطه سحب من الدخان القاتم تحت سماء مستترة بالغيوم السوداء — كأنّ السماء خجلت من ان تشاهد فظائع البشر في الارض في تلك الساعة · وكانت اصوات القتال تردُ من المدن الثلاث في صفاء ذلك الليل فتزيد ذلك المنظر رهبة ونظاعة

ولكن يظهر ان السماء كرهت ان تبقى واقفة لدى هذه الفظائع الارضية وقفة المتفرج المشاهد زمناً طويلاً · نعم ان صبرها طويل ولكن لكل شيء حداً · ولذلك تناول جو بيتير اقوى صواعقه وارسلها في الفضاء · فلعلع الرعد فوق تلك المدن الثلاث كانذار وتهديد للارض من السماء ان تسكن وتهدأ والا اخربتها · ولكن اهل الارض لم يسمعوا هذا الانذار لان اصوات البارود وصراخ القاتلين والمقتولين كانت تصمّ اذانهم · فحدث حينئذ ما زاد تلك المناظر رهبة وفظاعة · فان زوبعة هائلة هبت على السهل الذي كانت فيه المدن الثلاث وصارت تكنس كل ما في طريقها · وزأرت الريح وقصفت الرعود ومدت التنانين

خراطيمها من السحاب وهطل المطر كافواه القرب . وكأنَّ الارض خشيت من السماء قبل البشر ولذلك اهتزَّت تحت المدن الثلاث بزلزلة شديدة . وهكذا تحالف على المدن الثلاث التعيسة النار والقتل والصواعق والزوابع والزلازل . كأنَّ السماء تخلّت عنها وقضت عليها قضاء نهائيًا

وكان حليم في ذلك الحين جالسًا مع رفيقه تحت شجرة والمطر قد بلل ثيابهما . ومع ذلك فقد كانا ينظران باهتمام الى تلك المدن وينتظران طلوع الفجر . فلما طلع الفجر وصار في امكانهما ان يلمحا المدن لم يشاهدا فيها — وااسفاه — سوى خرائب واكوام سوداء ينبعث الدخان عنها

فصاح حليم حينئذ : واحرباه . اهكذا خربت سدوم وعمورة وبابل ونينوى في القرون الماضية ؟

ولما لفظ حليم هذه العبارة وقع نظره على فرسان قادمين من جهة مدينة المال . فلبث يحدق في جهتهم حتى انكشفوا له وكان الفجر قد زاد اشراقًا . فدبَّت حينئذ في نفس حليم قشعريرة شديدة . ذلك ان هؤلاء الفرسان كانوا خمس فتيات وهن هن اللواتي شاهدهن في البستان قرب قرية الدخول . وكانت حسناؤه صاحبة الحلة البيضاء راكبة في وسطهن كما كانت هناك . فصاح حليم برفيقه : ماذا نصنع الآن . اترى هؤلاء الفتيات بقية من بقي من سكان المدن الثلاث فجئن يلجأن الى هذه الاكمة فرارًا من الزلازل والنار . عزيزي صادق ماذا نصنع . الا تظنُّ انهن يجفلن ويخفن منا اذا شاهدننا هنا

وبعد برهة دنت الفتيات على افراسهن . وكان في يد كل واحدة منهنَّ منديل تمسح به دموعها من حين الى حين وهنَّ بلباس النوم . وكانت وجوههن صفراء كوجوه الموتى . فلما وقع نظر حليم على هذه الوجوه وتلك الدموع لم يتمالك ان بكى ملء عينيه . وقال في نفسه . ان الابالسة والشياطين حين اتيانهم الشر في الارض لا يفتكرون ان شرهم لا يقع اشد اذاه الا على اللواتي هنَّ اقل تحملاً له

ولما صعدت الفتيات الى الاكمة وشاهدن فيها بشرًا اغرقن في البكاء . وصرن لا يرفعن مناديلهن عن عيونهنَّ الا للنظر الى المدن وما صارت اليه . فاين بكاء ارميا على انقاض « ابنة صهيون » من بكاء هؤلاء العذارى على وطنهنَّ المحبوب . لقد فقدن — بفقده — كل شيء . لقد خرجن منه كما يخرج السيف من غمده . فالاهل والمال والمنزل والصداقة ورغد العيش والوطن والعائلة والآمال — كل هذه ذهبت في ليلة واحدة ولم يبقَ في

مكانها غير اكوام الفحم والحجارة واشلاء القتلى ورائحة الدماء والدخان · فيا ايتها السماء اذا كنت قاسية الى هذا الحد · يا ايها الخالق الحكيم ليتك كنت اكثر رحمة واشد رأفة · لانه اذا استاء هل كل اولئك العتاة القساة عقابك فهؤلاء الضعيفات الطاهرات الرقيقات — والوف غيرهن — لا يستاء هلنه

وكان حليم في تلك الاثناء منزوياً مع رفيقه وقلبه يتقطع حزناً واسفاً · وبعد برهة تقدم وهو يبكي لبكاء الفتيات التعيسات وقال مخاطباً حسناء وكان يظهر انها اكبرهن سناً وارشدهن رأياً

— هل تسمح سيدتي في حين كهذا الحين ان اعرض عليها وعلى رفيقاتها خدمتي

وكان حليم قد خاطب حسناء بقلب خلا في تلك الساعة من الحب لان عاطفة الحب قد غرقت حينئذ في عاطفة الحزن والشفقة والرأفة · وهذا شان القلوب الكريمة : ذلك لان عاطفة الحب اكثرها مصوغ من عاطفة محبة الذات واما عاطفة الحزن والشفقة والرافة فاكثرها مصوغ من محبة الغير · والقلب الكريم في ساعة كهذه الساعة يفتكر بغيره لا بذاته

فاشتد بكاء الفتيات عند سؤال حليم واجابته فتاته

— عفواً يا سيدي · ماذا نقدر ان تعمل · ان ابانا حاكم المدينة كان اول القتلى ومنزلنا كان اول المنازل المحروقة · ولولا مساعدة الجند الذين كانوا نياماً في دارنا لما نجا منا احد · بل كان حل بنا ما حل بباقي السكان الذين مات نصفهم بالسيف والنار والرصاص ونصفهم بالزوابع والزلازل · فكل ما نطلبه منك هو ان تصلي الى الله معنا ان يرحمنا ويعزينا

ورغبة من حليم في ان يروح هموم الفتاة قليلاً ويشغل فكرها عنها ولو دقيقة سألها

— ولكن ما الذي دعا الى هذه الفاجعة الهائلة ياسيدتي بعد ما رايناه من سكينة الاحزاب

فاجابت الفتاة والدموع ملء عينيها

— انني انقل لك ياسيدي السبب الذي ذكره لي ابي امس قبل دخولي الى غرفة النوم · فانه اخذ يدي بين يديه وقال لي : اتعرفين سبب كل هذه القبائح يا بنية · سببها الشراهة والاثرة والطمع · ولست ابرىء منها حزباً دون حزب · لان التبعة واقعة على الجميع · ولا استغرب ان تخسف بنا الارض او تنقض علينا صواعق السماء ما دمنا بعيدين الى هذا الحد عن مبداء الرفق والاخاء ·

الخاتمة

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً استطاع بعد ذلك تعزية فتاته بعض التعزية . وبما انها كانت مع شقيقاتها وارثات المدن الثلاث وما يتبعها من السهول فانها تولت اعادة بناء هذه المدن لتقيم فيها هيئة مبنية على « الرفق والاخاء » تكفيراً عن سيئات المعيشة القديمة . وقد اختارت حليماً زوجاً لها وصادقاً زوجاً لاحدى شقيقاتها ثم زوجت شقيقاتها الثلاث الاخريات ثلاثة شبان من اصدقاء حليم وعاشوا جميعاً في تلك الاماكن مع نسلهم وعمالهم ونسل عمالهم معيشة يحسدهم عليها اهل العصر الذهبي . ولا نعلم هل نتمكن يوماً من الايام من وصف هذه المعيشة الفردوسية التي لم ترَ الارض مثلها قبلها كما وصفنا معيشة المدن الثلاث القديمة . اما الآن فنكتفي بان نقول بان حبيبة حليم لم تنس ان تقيم ثلاثة آثار في ثلاثة اماكن على سبيل التذكار : المكان الاول البستان الذي شاهدت فيه حليماً اول مرة عند قرية الدسول . والمكان الثاني الاكمة التي وجدته عليها يوم خراب المدن الثلاث . والمكان الثالث الدار التي قُتل بها ابوها الشيخ الرئيس

تمت

اغلاط مطبعية

وقعت بعض اغلاط مطبعية في الكتاب · منها في الصفحة ٢ « اقام لها فيه » وصوابه « اقام له فيها » وفي الصفحة ٥ « كما يغمضها » وصوابه « كما يغمضهما » وفي الصفحة ٩ « سعداء بعلمهم » وصوابه « سعداء بمالهم » وفيها ايضاً في سطرين اسم « جميل » وصوابه حليم · وكذلك في الصفحتين التاليتين في ثلاثة مواضع · ومنها في الصفحة ١٧ « قد بدا » وصوابه « قد بدأ » وفي الصفحة ٤١ ‹‹ ابن رشيد ›› وصوابه ‹‹ ابن رشد ›› وفي الصفحة ٤٢ السطر ٣ ‹‹ اهل العلم ›› وصوابه ‹‹ اهل الدين ›› وفي الصفحة ٤٧ ‹‹ تضم آذانهم ›› وصوابه ‹‹ تصم آذانهم ›› وغيرها مما لا يفوت ذكاء القارىء